سليمان كتاني

الإمام زين العابدين

عنقود مرصع

بسم الله الرحمن الرحيم

الامام زين العابدين (عليه السلام) عنقود مرصع

كاتب:

سليمان كتانى

نشرت فى الطباعة:

دارالروضه

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الامام زين العابدين (عليه السلام) عنقود مرصع ----- ۸
اشارة ----- ۸
استشارة المراجع ----- ۸
للمؤلف ----- ۸
كلمة شكر ----- ۸
الى القارىء الحكيم ----- ۹
تقديم ----- ۹
الكلمة الأولى ----- ۱۱
المقدمة ----- ۱۱
تمهيد ----- ۱۳
نقوش الظل ----- ۱۵
مع الولادة ----- ۱۵
شاهزنان ----- ۱۵
غزالة ----- ۱۷
الحسين ----- ۱۸
اشاره ----- ۱۸
رسالة الانسان ----- ۱۹
الامامة ----- ۱۹
الوعد ----- ۲۰
الواعد ----- ۲۰
الموعود ----- ۲۰
الاقتناع ----- ۲۱

الکوفة ۲۲
علی الصغیر ۲۲
نبذات ۲۵
ابن‌ملجم ۲۵
و الأمة؟ ۲۵
و القبلیة؟ ۲۶
و الامام الصغیر علی؟ ۲۶
الامام الحسن ۲۷
وقائع ۲۹
رجوع القافلة ۳۰
یثرب ۳۱
الحزن یلون الصور ۳۲
ظل النقوش ۴۰
اشاره ۴۱
اطارات الامامة ۴۱
رمق الشهادة ۴۳
النعمان بن بشیر ۴۶
من یثرب الی یثرب ۴۸
و فی یثرب ۵۱
زین‌العابدین ۵۵
اشاره ۵۵
رسالة الحقوق ۵۸
الصحیفة السجادیة ۵۹
صیاغة الصحیفة ۶۰

اشاره ----- ۶۱
العرض ----- ۶۱
البعد البیانی ----- ۶۴
الخاتمة ----- ۶۵
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۶۵

الامام زين العابدين (عليه السلام) عنقود مرصع

اشارة

سرشناسه : كتانى، سليمان

عنوان و نام پديدآور : الامام زين‌العابدين عنقود مرصع/ سليمان كتانى

مشخصات نشر : بيروت: دارالروضه ، م۱۹۹۳ = .ق۱۴۱۴ = .۱۳۷۲.

مشخصات ظاهرى : [۲۷۴] ص

وضعيت فهرست نويسى : فهرستنويسى قبلى

موضوع : على‌بن الحسين (ع)، امام چهارم، ق۹۴ - ۳۸ -- .سرگذشتنامه

موضوع : على‌بن الحسين (ع)، امام چهرم، ق۹۴ - ۳۸ -- .داستان

رده بندى كنگره : BP۴۳/ك۲الف۸

شماره كتابشناسى ملى : م۸۱-۹۳۶۴

استشارة المراجع

تاريخ طبرى، لأبى جعفر الطبرى تاريخ العرب، لفيليب الحتى مختصر تاريخ العرب، للسيد أمير على أعيان الشيعة، للامام السيد محسن الأمين الامامم زين‌العابدين، لباقر شريف القرشى فى رحاب الصحيفة السجادية، لعباس على الموسوى زين‌العابدين، لعبد الرزاق الموسوى المقرم [صفحه ۷]

للمؤلف

الامام على، نبراس و متراس فاطمة الزهراء، وتر فى غمد محمد شاطىء و سحاب يسوع أبد الانسان لبنان على نزيف خواصره جبران خليل جبران فى مداره الواسع، مسلسل تلفزيونى مى زيادة فى بحر من ظمأ، مسلسل تلفزيونى أمل وياس الجذور الامام الحسن الكوثر المهدور الامام الحسين فى حلة البرفير ميخائيل نعيمة بيدر مفطوم جوزة الدب، قصة غزالة قاع الريم، قصة الامام زين‌العابدين عنقود مرصع محاكمة هارون الرشيد، مسرحية مخطوطة المهلب بن أبى‌صفرة، مسلسل تلفزيونى مخطوط [صفحه ۹]

كلمة شكر

انها موجهة للمستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية الايرانية فى بيروت بشخص صاحب الفضيلة الشيخ محمد شريعتى. للمستشار الفاضل يد جلى فى اخراج هذا الكتاب من دائرة العتمة الى حيز النشر - انها المهمة الجليلة التى تعنى بها الجمهورية الاسلامية الايرانية فى شرقنا العظيم، لجعل الفكر فى مهب الانفتاح، و ربط الاسلام المؤمن بامدائه المتوسعة بالفهم و الخير و المعروف. يا للعظمة فى الامام على، يربط ايران الجوار برسالة الاسلام المنفتح، و يفك الانسان من عبودية الاسار، فاذا بالملكة الأسيرة شهزنان بنت يزدجرد بن انوشروان، تعانق بالزواج سيد الجنان الحسين بن على، بكر الشهداء فى حقول العنفوان، و تنجب أول امام دعى بابن الخيرتين: الخيرة الفارسية و الخيرة العربية. على بن الحسين أو الامام زين‌العابدين، هو عنوان هذا الكتاب، تزينه الطباعة بمجهود ملون بزهو الانفتاح. فشكرا [صفحه ۱۰] للمستشار محمد شريعتى، يمسح كفه بمجد الحرف، و ينشر أطياب الجنان. المؤلف [صفحه ۱۱]

الى القارىء الحكيم

الى القارىء الكريم و أنت دائما وجهتى و عمادى أرجو أن تأخذ كتابى هذا فى الامام زين‌العابدين مترابطا بحدود ثلاثة: ١ - اعتبار الأدب فيه من أجل أناقة تصوير الفكرة و جعلها فى منزلة المحسوس. ٢ - اعتبار الخيال فيه من أجل تنزيل الواقع فى اطار الحدث. ٣ - اعتبار الحوار فيه من أجل احياء التاريخ و جعله يتكلم من واقع ما يضمر. و لكم شرك و احترام المؤلف سليمان كتانى [صفحه ١٣]

تقديم

بقلم السيد محمدحسين فضل‌الله الحمد منه و سلام على عباده الذين اصطفى. فى سيرة الامام على بن الحسين «زين‌العابدين» أكثر من عالم مفتوح على الله و على الانسان و الحياة، و أكثر من أفق منطلق بالفكر و الروح و الشعور و الحب الالهى، و العرفان الروحى، و أكثر من ساحة مليئة بالقضايا الأخلاقية، و الأجواء الانسانية، و المناهج الحركية و هو - فى ذلك كله - يمثل وحدة تربط بين كل هذه العوالم و الأفاق و الساحات. لأن الانسان الذى عاش مع الله معنى العبودية الخالصة له أمام ألوهيته المهيمنة على الأمر كله. فكانت مسؤوليته - فى انسانيته - احدى مظاهر هذه العبودية، و بذلك التقى بالانسان فى كل مواقعه و انفتح على الحياة فى كل مجالاتها، فكان الفكر هو سر ارتفاع الانسان فى مستوى المعرفة التى تطوف به فى أفاق الله، لتمتد معه فى أسرار الحياة فى ظواهرها الكونية، فى سنن الله فى الكون، و فى ظواهرها الانسانية الفردية و الاجتماعية، فى سنن [صفحه ١۴] الله فى الأفراد و المجتمعات، و هكذا اكتشف اروح فى البعد الانسانى السائر الى الله فى عبادة شعورية تهز الأعماق و فى حب لله يغمر الكيان كله فيذوب الانسان معه فى أجواء العشق الالهى، الذى يسمو الانسان به و يصفو و يرق فيعيش الصفاء كله و النقاء كله فى اطلالة على الحياة، و فى استغراق فى العالم الآخر فيما بعد الموت، حيث الحياة الجديدة التى «لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر» «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين». و مع الله فى الأجواء الروحية العبادية الفكرية، لا بد من قاعدة أخلاقية للسلوك يقف الانسان عليها ليتطلع الى الله من موقع أخلاقى ثابت، أصله ثابت و فرعه فى السماء يؤتى أكله كل حين باذن ربه و ذلك من خلال استيحاء أخلاق الله فى صفاته العليا و أسمائه الحسنى على هدى الحديث المأثور «تخلقوا بأخلاق الله» ليكون الانسان بذلك انسان الله فى روحيته الأخلاقية، و أخلاقه الالهية. و مع الله، يكتشف انسانيته فى حركة المسؤولية فى حياته لينفتح على الآخر فى آلامه و مشاكله و قضاياه و حاجاته و أوضاعه الخاصة و العامة و لينطلق معه فيكون ايجابيا فى حركته فى اتجاهه حتى لو كان الآخر سلبيا معه، كما نستوحى ذلك فى الخط التصاعدى الذى يرتبط بالأفضل و الأكمل و الأحسن، ليعارض من غشه بالنصح و يجزى من هجره بالبذل و يثيب من حرمه بالبذل و يكافى من قطعه بالصلة و يخالف من اغتابه الى حسن الذكر و يشكر الحسنة و يغضى عن السيئة، و يكره ظلمه للآخرين كما [صفحه ١۵] يكره ظلم الآخرين له انطلاقا من رفض المبدأ كله من نفسه و من الناس. و هكذا تكون الحركة الانسانية فى خط المنهج القائم على العدل و الاستقامة و الحرية لتكون الحياة أقوى و أقوم و أكثر انفتاحا على الحق و الخير و السلام. و فى ضوء ذلك قد تكون هذه السيرة بحاجة الى دراسة توثيقية واسعة تقف أمام كل هذه المفردات التى يحفل بها تاريخ هذا الامام العظيم، لتستوحى منها أكثر من خط فكرى و أخلاقى و روحى و اجتماعى على مستوى النظرية فى النهج العام، و لتلتقى بالخطوط التفصيلية فى حركة السلوك العملى فى هذه السيرة على مستوى التطبيق، لتجد الانسان تجسيدا للقيمة الروحية المثلى و لتكتشف فى عمق هذه القيمة و امتدادها عمق هذا الانسان و امتداد أبعاده فى السر الكامن فى الفكر و العقل و الروح فى مداها الواسع. و قد ينفتح الدارسون فيها على الكثير الكثير من مفردات الثقافة الاسلامية فى المسألة العقيدية و الفقهية و العرفانية و الاجتماعية و الأخلاقية بحيث تتمثل لك الثروة العلمية الواسعة الممتدة فى واقع الحياة كلها على خط الاسلام. و اذا درسنا الشخصيات التى روت عنه و تتلمذت عليه و عاشت فى مدرسته فاننا نجد فى ذلك كله أنه كان - فى عصره - الوجه الأبرز و الأكثر اشراقا و تأثيرا فى الثقافة الاسلامية آنذاك. و ربما كانت مشكلة

بعض الباحثين أنهم يتمثلون فى [صفحه ۱۶] دراستهم له الوجه الحزين الذى يعيش بكائية الألم فى ذكرياته الأليمة المفجعة للمأساة الكربلائية التى وعى كل تجربتها المؤلمة القاسية التى تهز الشعور كلها فى عمق احساسه لتحوله الى فيض من الدموع المتفجرة بالحزن المأساوى، و لكننا لا نجد ذلك فيه على مستوى الظاهرة فى معنى الشخصية، بل قد تكون على مستوى اللحظات الطارئة التى قد تحمل فى طبيعتها بعض الحاجة الى الاثارة و التذكير من أجل الاستفادة من صورة الحزن فى الذكرى لاستعادة القضية فى الوعى الانسانى بعمق و امتداد يوحيان بالعقدة الحركية التى يتحملها كل الناس الذين كانوا لا يزالون يخضعون للحكم الذى صنع المأساة و استمر فى ممارساته التى انطلقت حركة المأساة التى عاش الامام الحسين عليه‌السلام ثوريتها الاستشهادية، من أجل الاحتجاج عليها. اننا عندما ندرس موقف الامام السجاد فى مجلس ابن زياد و يزيد، و فى حواراته فى الطريق الى الشام، و فى حديثه، قبل ذلك مع السيدة زينب، فاننا نجد الهدوء القوى، و الصبر الجميل و الوعى المنفتح على الموقف، بالدرجة التى قد لا تجد لديه أية دموع ليسكبها على المأساة القريبة من تلك المرحلة. اننا لا نستطيع أن نتصور الامام جازعا باكيا بالطريقة التى يستهلكها بعض رواة التاريخ الذين يريدون تحريك الاثارة العاطفية من دون دراسة للأسس الأخلاقية القويمة التى ترتكز عليها شخصية هذا الامام، و الأئمة من أهل البيت عليهم‌السلام التى ينطلق الصبر ليكون فى مستوى الأساس الذى ترتكز عليه الشخصية فى جمعى جوانبها. [صفحه ۱۷] و هناك - من الباحثين - الذين يتحدثون عن هذه الثروة الروحية الدعائية التى تمثل الصحيفة السجادية، كما تمثل مجموعات كثيرة متناثرة فى أكثر من كتاب، فيرونها أسلوبا جديدا من أساليب الدعوة الى الله و الاصلاح الاجتماعى، من خلال ما تتضمنه، هذه الأدعية، من اشارات فلسفية، و نظرات اجتماعية و مناهج أخلاقية، و ايحاءات روحية، و خطوط اسلامية، لينطلق الناس - من خلال الدعاء - فى الانفتاح على كل هذه القضايا، ليفكروا و يهتدوا و يتحركوا نحو الأهداف الكبرى التى يستهدفها الاسلام فى فكره و شريعته و حركته. و لكننا - فى الوقت الذى نقدر فيه هذه الرأى - نتصور أن الأدعية كانت نهجا اسلاميا فى عبادة الله، و التوجيه الذاتى الروحى، فى الأسلوب القرآنى، و فى السنة النبوية الشريفة، و فى تراث الامام على و الأئمة من بعده عليهم‌السلام. و لم تكن حالة متكلفة على طريقة الكتاب و المؤلفين فى انتاجهم الفنى بل كانت حالة عفوية وجدانية فى الانفعال الروحى العبادى الذى يعيشه الانسان بين يدى الله، فى خصوصياته الذاتية الايجابية منها أو السلبية، أو فى صفته الانسانية التى يتجرد فيها الانسان عن خصوصية ذاته فى سلوكه الشخصى، ليتحول - بين يدى الله - الى انسان يحمل فى انسانيته كل خطايا الانسان و كل تطلعاته، تواضعا لله، و ذوبانا فى حبه، و استغراقا فى عظمته. ان القيمة الفنية المبدعة فى أدعية الامام زين‌العابدين عليه‌السلام، فى الفكرة و الأسلوب و العرض و جمالية الجو و الايحاء و اللفتة و الايماء، و روعة الكفرة. [صفحه ۱۸] ان هذا كله يوحى بأن الامام كان يدعو من كل روحه و قلبه و شعوره و كل وجوده و كيانه، تماما كما هو الاحسان العفوى الذى يعيشه الانسان العابد الخاشع الخاضع بين يدى ربه. و لكن هذا لا يمنع أن يجد الناس فيها نتائج الوعى الروحى الأخلاقى الاجتماعى فى المسألة الاسلامية، لأنها تمثل احدى نماذج الثقافة الاسلامية فى حركة التوعية العامة التى يجد فيها المؤمنون الغنى الروحى فى التجربة الدعائية العبادية من خلال الشكل و المضمون و الجو و الحركة و الانفتاح. و هناك نقطة أخرى - بالاضافة الى هذه النقطة - و هى أن الواقع الذى عاشه الامام فى حركة الدعوة، لم يقتصر على الدعاء بل امتد الى أكثر من أسلوب و انفتح على أكثر من قضية، و تحرك فى أكثر من موضع كانت تجد فى تراثه الكثير الكثير من المفردات المتحركة فى واقع الانسان كله، مما يعنى أن الساحة كانت تتسع للكثير من النشاطات الاسلامية من دون أية مشاكل سلبية، فى هذه المجال. اننا نعتقد أن الامام السجاد لم يدرس دراسة شمولية على مستوى ملاحقة كل نتاجه العملى و الروحى و الحركى فى تحليل عميق دقيق شامل، الأمر الذى يفرض على الباحثين مواجهة هذه المسؤولية فى تجارب متنوعة متعددة، من أجل الوصول الى معرفة عناصر هذه الشخصية الاسلامية الكبيرة، بعمق و وضوح و شمولية. [صفحه ۱۹] و هذا الكتاب تجربة أدبية فنية فى اكتشاف العناصر الكامنة فى عمق هذه الشخصية، من خلال ملاحقة الجذور التاريخية التى عاشها هذا الامام العظيم، فى أجواء جده و عمه و أبيه، و فى الفترات التاريخية الصعبة التى جلبت الكثير من المشاكل و الآلام للخط الاسلامى الأصيل، فى محاولة للسير مع مفردات هذا

التاريخ كنقاط مضيئة على التأثيرات التى تتمثل فى الجانب الفكرى و الشعورى و الحركى فى حياته. و هى تجربة حية فى جمالية الأسلوب، و ترف الكلمة، و سعة الخيال و عمق الاحساس، و استكشاف الآفاق البعيدة بحيث نشعر بحركية التاريخ فى كل سلبياته و ايجابياته، و بكائياته و صرخاته، و فى كل مشاكله و قضاياه، و حربه و سلمه، و تتمثل شخصياته فى وجدانك كما لو كانت ماثلة أمامك فى كل حركتها التى تضج بالصراع الدامى الذى حول الساحة الى دموع و دماء. و قد نلاحظ على كل التجارب الأدبية الفنية أن الكاتب قد يقول الشخصية التاريخية ما لم تقله مما قد يتبناه من أفكار و آراء و كلمات بحيث لا يتناسب مع الخط العام لفكره و حركته الأمر الذى قد يخلق بعض الارباك لصورة الشخصية فى الوجدان الفكرى. و قد استطاع الكاتب - قد نهاية الكتاب - أن يفهرس «رسالة الحقوق» و «الصحيفة السجادية» فى عناوينها البارزة، و أن يشير الى بعض ايحاءاتها الفكرية و الاجتماعية و الروحية. اننى أقدر للصديق الأديب سليمان كتانى أدبه و فنه و شاعريته فى خياله و أسلوبه كما أقدر له هذه التجربة التى اذا لم تستطع أن [صفحه ۲۰] تمنحنا الصورة الميدانية الواقعية للامام السجاد فقد منحتنا بعض الملامح الرائعة للأجواء التى عاشتها هذه الشخصية المميزة. انها أسلوب جديد فى كتابة السيرة الذى قد تجد فيه ما لا تجده فى الكتب المنهجية لكتابة السيرة، و اذا كنا نتحفظ معه فى بعض الستيحاءاته و طريقته فى الاستنتاج و بعض أفكاره، فان ذلك لا يمنعنا من تقدير جهده راجين لكتابه المزيد من الرواج و الانتشار، مع كل المحبة و الانفتاح. ۱۸ صفر۱۴۱۴ ه محمدحسين فضل‌الله [صفحه ۲۱]

الكلمة الأولى

يا أيها الامام الغارق فى معجن اللطف و يا أيها السيد الأنيق الساجد فوق القبب آرانى الآن أنقر و ترى اليك، و هو وتر ينغم فيك بعد أن نقعته بطيب حوشته - منك - و أنا أتلقف حروف كل صحيفة من صحائفك المبلولة بذلك! يا لذلك الكبير يسحقك بين يدى ربك! و يا لربك الأنصع و الأكبر، ينشر ذل الطيبين عزا فوق صهوات القناطر. و انى الآن آتيك - لو ترى يا سيدى - من ذات الباب الذى دخلت منه: مرة للاختلاء بعمك الحسن «الكوثر المهدور»، و مرة أخرى لتذوق طعم العز المقطور من رذيذات الدم المفجور من وريد أبيك الحسين و هو «فى حلة البرفير» - و أيضا من ذات المحراب الذى خشعت على لمسات عتباته و أنا أطيب نفسى، حينا بين يدى جدك «النبراس و المتراس»، و هو السجاد مثلك فوق القباب، و حينا آخر تحت ناظرى جدتك الزهراء، الواقفة فوق لوحات الميدان، كأنها قضيب من رمح، أو كأنها «وتر فى غمد»، و لكنها - أبدا - ملفوفة بكل قمصان أبيها! اما أبوها فهو جدك الأعلى، النازل على الأرض من [صفحه ۲۲] أفاجيج السحاب، انى رأيت انه هو «شاطىء و سحاب». هؤلاء كلهم - يا سيدى - و هم خمسة خشع تحت القباب - قرع الباب عليهم قلمى، و دليلى انه بهم قد طاب: ارتياح فى نفسى استمر به مغمورا، و كلمة من طيب كانت تجيئنى - مرة اثر مرة - من أولياء آل البيت، كنت أجد فيها كل الثواب. ان آل البيت كانوا - دائما - الداعين ريشة الأقدام للابتراء من مثل هذه الساحات. و أنت، يا رابعا فى نول الامام، و يا سادسا أنقر عليه الباب - فانى أرجو أن يكون لى دخول مقبول تحت قناطرك الظليلة. عساى أراك كيف تنام بعين، و يكف بعينك الثانية تصحو فلا تنام. و كيف تغمر ألما من مضيض التراب بأمل منسوج من فتيل السحاب؛ و كيف تشرب القرآن لينضح من تجعدات جبينك، و من تدرنات ركبتيك، و من مدارج طويتك، و من أشعة عينيك. و كيف تشمى - هنا - مشى الهوينا، بينما تبدو هناك، رشيق العدو خفاق الضياء. عساى - أعود فأقول - أصيب فليك مدى الملم به حروف الكلمات، فاسمع أذنى صدى ما حوشت عينى من نفحات، فاذا كنت غنى الجمع منك و فيك، فاسمح لى بنوم قرير الوسادة - أو اذا كنت شحيح البلوغ، فارشقنى بهزة من ارق أعدل بها ما قصرت عنه عين الرؤى، و عين النفس، و عين التوق الى واحات الصفاء. سليمان كتانى [صفحه ۲۳]

المقدمة

على بن الحسين، و الامام زين‌العابدين؟ هل هما اسم واحد لجهاز واحد؟ أم ان هناك مركبا مزجيا أذاب الموصوف فى الصفة، فى عملية تفاعلية اندماجية أنيقة المسار، راضت الاسم و امتزجت به، ثم ابتلعته ليكون للصفة بروز اللون فى جهرة المطلق! انى أرى ذلك فى حقيقة اضمارى، لأنى لمست هنا بين موصوف و صفة مسافات رققت الاسم المبنى من لحم، و دم، و غدد بيضاء، و راحت تتقلب به و هو يمشيها من مقطع الى مقطع و من مقلع الى مقلع، حتى صهرته بعرقه و أتعابه و آلامه، فاذا هو - فى طرف الميدان - ثمر أنضجته الشمس، و الريح، و خفقات الغمام، و عطر خلصته أقمار الليالى من شهوات البراعم و من أصباغ الرغام. تلك هى واقعية الحال... قبل أن يكون على بن الحسين زين‌العابدين، كان عليا بن الحسين، بلا لون من ألوان العبادة... و بعد أن مشى ردحا فردحا: تحت عينى جده على، و فى حضن عمه الحسن، و بين يدى أبيه الحسين، لم يبد عليه انه صار امام [صفحه ۲۴] العابدين، ليس لأن الامامة لم تكن قد ألقت على كاهله ثقلها المرزوم - فهو لها، على الرغم من أن التقية كانت تلجلجهم جميعا - بل لأن السمافة المبدعة التى لم تكن قد ألقت بعد كل وزنها عليه، هى التى ما زالت بانتظاره فى مكامن الطريق! بعد أن يبلغها، و يمشيها بعرق و دم، و يشربها، و تعجنه تحت مياسمها، ساعتئذ يصير - و من دون شك - أمير العابدين. و ماذا تعنى هذه الصفة الواسعة المضمون؟ أو بالأحرى ما هى خلعتها علينا، نحن المتشوقين المنتظرين حفظ حروف الكلمات التى كان يتعبد به الامام، امام عرش سيد المتعبدين؟!! بحكم الطبع أن فى صلوات التعبد راحة للمؤمنين، و مزيجا من حرارة و بلسم للمحرومين و المكروبين. و كثيرا من انسحاق للمرضى و المظلومين و المضطهدين، و ان فى كل نوع من صلاة أملا بعطف و شفقة و نجاة، و ان الايمان الراجح برب الخلق هو المدبج كلمات الدعاء، و الملونها بالحرارة، كما و ان راحة ضمنية تشدد المصلى و تؤمله بالاستجابة. و لكن زين‌العابدين لم يبدع صلاة ما سجد بها من قبل، بل انه سحب الصلوات كلها من قيود الحرف، و جعلها تنبض بالمشاعر المتحركة، لتكون عقلا، و لتكون علما، و لتكون و حيا و فهما و روحا و حسا، و لتكون التهابا بالحق، و نورا بالايمان، [صفحه ۲۵] و لتكون حبا و ثوابا للقلوب البريئة، و لتكون بغضا يتفل الحقد فى وجوه الطواغيت، و يرجمهم بأوبئة مبيدة، و لتكون بركة و حورا من جنان للمطهرين، و لتكون نقمة و زفيرا من جحيم للأبالسة المجرمين العاهرين. أجل - لقد كانت صلواته كله قالبا من فن، بحروف من أدب موشوم يسمو به النبل و صدق الحس، و يميزه البعد الفاصل بين الحق و الباطل، فى لون من العمق الفريد الذى يقدم نفسه بنفسه، لمجتمع تنقصه الصلاة الكبيرة، حتى يعود الى لملمة جراحه التى فجرها فى صدره الكفرة المجرمون. ان المسافة الطويلة التى استكمل مشيها على بن الحسين و التى غمرته بكل ألوان الأتعاب و الأوصاب، و التى نزلت به الى أغوار النفس، و اندمجت بكل طواياها، هى التى فجرت فيه المواهب، و نقلته من الاسم المجرد الى الصفة الزاهية المدلة بلونها، و هى التى جعلته يكتشف معين ذاته المدموجة بالواحات التى دلنا اليها جده الأكبر، لتكون نعيما لهذه الأمة، فوق هذه الأرض بالذات، لتكون جنة لنا تزينها و تصونها التقوى، و لا يعززها الا الحق و الصدق و النبل و روح المساواة. ان الصفة التى لبسها اسم على بن الحسين و تسربل بها كما يتسربل الشوق بقلوب العاشقين، هى التى تغمرنا الآن بسناها، و هى التى تجعلنا واقفين على عتبة المحراب نسأل: كيف كان لك [صفحه ۲۶] أيها الامام أن تصلى، و أن تملأ الدهر بالصلاة و الدعاء؟ و لماذا صغت الحروف و نقشتها بمثل هذا الذل المسلسل و المنور بالجمال؟ أليست الصلاة تأملا عميقا و صمتا غائرا فى حميم الذات؟ فلماذا رحت تحبر مئات الصفحات بآلاف الجمل و عشرات ألوف الكلمات؟ أيكون ربك العليم الفهيم الواسع الظن، و البهى السمات، لا يرضى الا بذل العباد محفورا على ألواح السجلات؟ أم انك رحت هكذا أيها السيد، تنقش القرآن فى صميم الذات، حتى يصبح حيا فى النفس، و حيا فى البال - حتى يصبح خشوعا فى الطوية و حضورا فى السجية: سدا لجوع، و ريا لعطش، و طريقا لمأرب، و بلوغا عفيفا لأى صواب. يبدو أنك كنت كل هذا أيها المتمنطق بالجسود الرفيع تحت القناطر و فوق القباب - يبدو أنك امام ترسل بنهج مدرسى قويم الدرس و سداد الحساب - يبدو انك رسالى من طراز بهى أدرك أن رسالة ابن الغار هى المنجية الأمة من الدمار.... و هى البانية بالعزم، و به الجامعة بالتوحيد، و هى الصائنة بالمثل العفيفة و التطبيق الحصيف، و هى الخاضعة بين يدى خالق قدير عظيم رحيم؛ يلف الصدق بالتقوى، و الجمال بالعفاف، و العدل بالحق، و الحب بالوفاء.... يا للأمة تأخذ منها و ترد

اليها أوشحة الامامة.... و يا [صفحه ۲۷] للامامة فيك تزرع العلم فى العبادة، و توزع الصلاة على الأفواه... و يا لقلمك كيف يغرف من ذاتك أدب المران فى مدى الانسان، يسلسله حقوقا و معارف، و يحدده صيانات، من أجل مجتمع مبنى بالصفات، و مهدوم بتحطيم الصفات. ألا تسمح لنا أيها السيد بتتبع خطاك، لنتفهم مبتغاك؟ و هل يكون لسياسة الأمة تسديد خطوات ان لم تدرك - هى بالذات - كيف جمعت قدميك - لها - من طول المسافات: و المسافات؟ أليست - فعلا - تتألف من الخطوات التى نمشيها أو نمشى بها فى حياتنا فوق الأرض؟ فلنتبصر قليلا- فى بسطة التجريد: قد نكون فى حياتنا أكثر من مشائين، أى قد نكون - حتى - عدائين: و لا يكون لنا من عدونا الناشط أى نسج لأى مسافة: و معنى ذلك - كما نفهم - أن المسافات هى أبعاد أخرى لا نمر ببعد واحد منها، و نحن حتى مقعدون، ألا و يترك فينا هذا البعد نقشا تعيه ذاتنا، و تمتلىء منه طويتنا، و تتلون به أساريرنا، و تفصح عنه مجالاتنا فى التعبير. و المسافات؟ بمعنى الجمع، أليست - هى - حبال المعاناة؟ تقتنصنا و نحن نصطدم بها، فنمتصها و هى تغشانا؟ انها هى التى ستكون خميرة فينا، ينمو بها عقلنا، و وعينا، و حسنا، و مدانا. ان المجالات الروحية فينا هى الأشد تأثرا بها، و الأزخم تعبيرا عنها، و هى - وحدها - التى نعينها مسافات تبرز منها شخصية الانسان. [صفحه ۲۸] و اسمح لنا أيها السيد، أن نتكشف أبعاد مسافاتك، حتى يستقيم لنا فهمك، و حتى يتنور لنا صدق مداك. أليست المعاناة - معاناتك - هى التى اختمرت قيمة فيك، برزت فى فهمك، و انجدلت فى صلواتك؟ أليست هى التى كانت نقوش الظل فى خلود صفاتك؟ [صفحه ۲۹]

تمهيد

لقد عزمت على أن أقرع الباب و أدخل الى الامام زين‌العابدين... كنت أعلم انه من سكان مدينة يثرب، و لكنى كنت أجهل أين تقوم العمارة التى ينزل فيها، و أى واحد من الشعاب يؤدى اليها... فوجهت اليه هاتفا من توقى و روحى... و سريعا ما سمعت منه بوادر الترحيب: - ليس عليك أن تضيع فى أزقة المدينة. بيتى شاهق فى صدر المكان. يدلك الشكل اليه. أول ما يأخذك منه مدخل و اطىء ضامر... لا يتمكن من عبوره من لا يروضه السجود... فالعتبة حرف من مدى و الممرات حروف من - صعود! نزلت هذه المقاطع فى بالى مغلفة ببسمة زادت على روعة [صفحه ۳۰] اللغز... و تلفت فاندهشت من عمارة واقفة فى الصدر - اطلالتها نحيلة فى مدخل هزيل، و بعتبة لا ترتفع عن الأرض الا بضعة أشبار... و لكن المدخل المتواضع هذا، فانه يأخذ - قليلا قليلا - بالارتفاع، مع امتداد العمارة، حتى يبلغ فى طرفه الشرقى ارتفاعا شاهقا كانه من أنواع القبب. أحنيت هامتى و دخلت - بعد عدة خطوات شعرت بان الممر قد علا سقفه، و شعرت أيضا بانه قد اتسع، ثم بدأ يتخلص من شحوب النور... و هكذا - بعد لحظات - تمتعت براحة ضمنية فى وسط قاعة عميقة السكون، و ان تكن خالية من الرياش، و لكنها فى سقف تتزاحم اليه - من كل الجوانب - أشعة الضوء، و هكذا فأنت فى لذة جديدة تبحث: من أين لهذه القاعة أن تجذب الى سقفها أسلاك النور؟ و تقدمت صوب معبر محفور فى الجدار، مسدول عليه سجف سميك، و من لون الليل، و ما كدت أزيحه بكلتا يدى حتى انهمرت على عينى أضواء خلتها هابطة من سماك رفيع: ثلاث قبب مستديرة، تتساند فى الفضاء، تظللها - على وسع العلاء - قبة رابعة شاهقة، تظنها مسبوكة من عسجد منير... انها من هالات لا تدرى من أين تسخو عليها مسارح السماوات!!! هل كنت مخطوفا الى بهاء؟ أم كنت مشدودا بخيوط العسجد؟ و لكنى كنت أسيرا أفتش عن أرض غير هذه الأرض، [صفحه ۳۱] تترسخ فوقها قباب عدن... بعد لحظات - من يدرى كم هو طولها - وقعت عينى على ساجد تحت القبب، يغلف نفسه بالأشعة و يرفعها مرايا مرايا... عرفته... و لكنى خجلت من أن أسجد قربه... لأن سجوده كان من النوع الصقيل. قد يحسب الخيال شفيعا لمثل هذه الصورة البيانية أرسمها فى امامنا المميز زين‌العابدين. و لكنها - مع مطلق الحال - صورة تعكس الواقع الحياتى الذى اندمج به الامام. فعلى الأصغر انما هو الرابع فى خط الامامة، و لم تتوش امامته الا بذات الوشى النابع من ذات المصدر! و المصدر واحد يتغير عهده، و لا- تتغير أرومته... أى أن العهد هو الملون بحورف الزمان، اما الجوهر فهو الموصول بركيزة الأصل، ثابت عليها، و مستمر بها، و تلك هى حدوده الأصلية، و لولاها لضاع من أفق الزمن، و لما كانت له الصفات البليغة

التى و شته بها حتيمة ثمينة الرجحان. ذلك هو زين‌العابدين تحت قبة سخية من قبب الحق، رفعها جده العظيم فوق قناطر ثلاث: واحدة دفقها دفقا سنيا باسم جده على الراقد خالدا فى مسجد الكوفة - و واحدة نزلها تنزيلا بهيا من ضلوع الجنة، رسمها باسم عمه الحسن النائم سيدا فى حضن أمه فاطمة فى ردهات البقيع، و واحدة مقطورة من الدموع الحمر، باسم سيد من أسياد الجنان، هو أبوه الشهيد الأمثل و الأروع، المغطى كربلاء ببرفير أزهى من ضلوع المجد! [صفحه ۳۲] أى واحد من أربعة يمكن عزله من ملف يدور به و عليه قسطاس الامام؟ أى واحد منهم لم يشده بالرسالة، و النهج، و العزم الملون؟ أن الجوهر واحد كما قلت، لانه ركيزة من معدن أصيل لا يمكن أن يتبدل أو يتطور... اما التصرف من أجله فى الصيانة و التسديد، فهو الذى يلبس زيا متناسبا مع ساعات العصر، و اهتزازات ريحها فى الهمود و الاقلاع. لقد كان التصبر و التروى خيطين و حيدين غزل بهما الامام على عباءته العفيفة، و لما انضغطت بوجهه فتحة الريح، واجه الميدان بصدره دفاعا عن أمة هو وليها الأول، تثبيتا لها عن صدقه و ولائه، و لقد قطعت الساحات وريده، و كان سعيدا - هكذا - بانضباط خلوده. اما الأحداث فكانت وفيرة فى أيامه - و أن تكن كئيبة بكفرها و جحودها - فقد ملأها و تحداها، و لونها بصموده. كذلك يمكننا القول عن العهد الثانى الذى آل الى الامام الحسن، فانه كان استمرارا فى تتميم النهج، و لقد نسجت الأحداث نسجها الآنى، مما جعل الامام يتصرف من و حيها و ضغطها... أكان فى مقاومة ريحها، أم فى مطاوعتها حيت تستريح من اقلاعها الأهوج! و كلنا نعلم أن التصرف كله كان من نسيج الاحتياط لصيانة أمة من الانفراط. و لكن الأحداث ما غيرت لا خيطها و لا مكوكها مع العهد [صفحه ۳۳] الثالث الواصل الى الامام الحسين - و لقد حاول أن يتصرف، و لكن الريح سدت عليه كل المجارى! ان سياسة الخمسين سنة ألقتهم جميعا فى قبضة يزيد، و رمت الرسالة على شدق خليع! و كان الرفض - وحده - بوابة التصرف، حرك به الحسين ضمير الناس، عن طريق الاباء و العنفوان، بتسليم الوريد لمقطع الشهادة... ان العنفوان وحده يبقى للأمة، تشترى به حينوناتها المجيدة التى تعيدها الى ساعة الوصل. منذ مقتل الامام على، مرورا بتذويب الامام الحسن، و الامام الحسين يتقلب فى ذل، تتجرر به - تحت عينيه - هذه الأمة التى استرجعها جده من غيبوبة خرقاء! و لكن الذل الذى يطول و لا يقتل، هو ذل الفحمة السوداء: تنام ليلها الطويل... و مع فجر بهى تولد لتبقى الى أبد حبة ماس!!! هذا هو كل ما مر به الامام الحسين، حتى انفجر - هلالا - بعد عشر فى كربلاء. و جاء دور الامام الرابع. لم تقع عدسة عينه أبدا - على جبين جده الرسول - اما الثلاثة الآخرون فانه استوعبهم بعينيه، و أذنيه، و ملامس أصابعه، و هم الذى ضمخوه: بالذكر، و الآية، و كل حروف الحديث، و هم الذين طيبوه بأسرار العطر، و نقشوه بالفوح المقدس، و هم الذين علموه نقل الخطوات فوق المعابر السود، و امتصاص الحزن من ملامس السوء، و تغليفه بالفرح النفيس، و تقبل الضيم من ملاقطه المكروهة، و عرضه على أفق [صفحه ۳۴] فسيح تعيش فيه زهور المكارم. فعلا - انه هو هذا الامام - ما وصل اليه دور الامامة، الا بعد أن قطع ثلاثة و عشرين عاما من عمره و هو فى مباركة الظل. لقد شاهد - بعينيه و حسه المرهف - سقوط جده الامام الأول تحت سيف ابن ملجم!!! و لقد صعقته صعقا لعقة العسل، تيبس بها عروق عمه الحسن!!! اما أبوه الآخر، فانه رافقه رفقة العمر، و رفقة الدهر... و شاهده - بعينه، و قلبه، و روحه، و كل ذله الأكبر - يتقطع و يتفجر، من دون أن يتمكن من تبليل شفتيه بقطرة ماء ضن بها نضح القرآن!!! و لقد تخلص من برائن ابن زياد فى الكوفة، و نجا من قبضات يزيد فى الشام، و تم افرازه الى يثرب، حيث ستمتصه ساحة الحزن، من غير أن تكون له باع يمدها الى حسام! لا يحلو لى أن أرسمه، أو أن آتى اليه، الا من خلال هذه النقوش التى أسميها «نقوس الظل». انه عنوان الفصل الأول من هذا الكتاب فى سيرة الامام زين‌العابدين التى هى تظهير أدبى لم تكتمل حلقاته الا بعد جلوسه فى كرسى الامامة، و اعتماده على قوى الذات التى تم بها النقش النفيس، و رواح - من وحيها المتين - يبدع ذاته الثانية فى التحامها بذاته الأولى. ان فى التحام الذاتين تكاملا حيا فى اظهار الشخصية المثلى بنضجها الذى ستتصرف به فى نهاية المطاف. [صفحه ۳۵] سيكون عنوان الفصل الثانى: «ظل النقوش» - و تفسير ذلك أن النقوش التى حفرت عميقا فى نفسية الامام، هى ذاتها - فى فعلها الحاضر - مشت به فى حقيقة الابداع، و جلت له خطوط التصرف. لم يبق للامام زين‌العابدين - و قد وصلت اليه الامامة بهذا الفراغ المفجع - الا أن يلجأ الى يثرب، يفتش عن زوايا يشرب فيها حزنه الكثيف! اما أن يظهر فى الساحة و

يقول لها: ها أنذا... فان الساحة ذاتها كانت المقبوضة على نفسها لا تدرى كيف تهرب عنها معالم النور! ان الخوف، و الكبت، و التهديد، تسد كلها على القوم مجالات التنفس، و تضغطهم فى لطوات الصمت العقيم! ليس فى الساحة الا الوقاية، و التصبر على الضيم... اما ذلك الذى يتحومل فى خفايا النفس، فانه الرهيب أيضا، لا يرجى منه خلاص يبشر بطمأنينة و هدوء! انه بغض، و حقد، و مفاعل تفجير الضغائن، و ليس فيها ما يصلح أمر الناس، أو يرشدهم الى صواب، بل ان كل ما فيها ليس الا معاول تهديم! يضرب بها عامل أخذ الثأر، حتى تنام كل المجاهيد فى حفر التردى و مقابر الموت!!! اما الامامة - و هى المغمورة الآن بفداحة الأحزان - فهى المسدودة عليها قبضات التصرف السليم... ليس لها السيف، و ليس لها الرمح حتى تزجر الخطأ و تقطع به باعه و لسانه، و ليست بها صوابية التصدى و فرض حقيقة النهج، حتى ترمى سهمها و تعاقب المتعدى، و تطمره فى كيده، و تكون - [صفحه ۳۶] بالوقت ذاته - لمامة شمل فى توحيد الجماعة و صهرها فى المجدل الصافى المنزه من أحقاد القبائل و ارتباطها بهمجية أخذ الثأر و ضفائره المخزية! و عكف الامام على تفتيق ذاته من واحات ذاته... لقد أشرقت عليه كل المعادلات، بعد أن اتضح له أن الأمة التى هى ميدان الرسالة و مكانها الأول فى التحقيق، هى التى تمر منها و عليها كل الخطايا، أو فلنقل كل الرزايا، و انها هى - بالذات - المتسدركة حتى تنقذ نفسها من حزن صبغتها به «براقش»، و ليست تنام «براقش» الا تحت ضلوع الانسان، فهى منه فى منبت الخزى و الويل، يبتدعها له لبه المخبول بجهله الأبشع! ان الوعى - وحده - ينجى النفس من «براقش» و تطمر براقشها فى محافر ذلها المكشوفة للعيان! أى شىء غير الحق يبنى مجتمع الانسان و ينجيه من انحطاطه؟ و أى شىء غير العفة، و الطهر، و الصدق، يجلو بها شعاب سلوكه؟ و أى شىء غير فقه الذات يدله الى رحمة ربه الرافع السماوات فوق رأسه، و الباسط الأرض تحت خطواته؟ و أى شىء غير العلم المؤمن بطاقات الخير يدله الى جنان المعروف، و ينهاه عن جهنم المنكر؟ و أى شىء غير التقوى يذلل النفس ليرفعها الى مجالات الجمال؟ و أى شىء غير الصلاة الكبيرة و البريئة يرفع [صفحه ۳۷] النفس و ينزهها من المعاصى، و ينورها بما لها و ما عليها من حقوق و موجبات، حتى تستقيم دروب الانسان معززة باناقات الروح، و مطيبة برفاهة الوجدان!!! هكذا راح الامام زين‌العابدين ينثر حروف أبجدية مسبوكة له على مشفرى قلمه الرزين، حتى يزرعها على كل صفحاته القديسة، فتنتج مواسم مواسم من صلوات، و أدعية، و سجود رفيع، تتعلم قراءتها الأمة قراءة تترسخ فى صلواتها، و سجودها، و أدعيتها... و تترسخ - بالتالى - فى وعيها، و حفيظتها، و مناهجها، و سجاياها، و مداركها، و كل سلوكها: ايمانا و تقوى، و انارة... سيكون للقسم الثالث من هذا الكتاب عنوان تلبسه الامام صفة مميزة له و هو: «زين‌العابدين» - ان العنوان هذا هو مطاف الصفة، تسربل صاحبها بعباءة من فن، تحترم العلم و تجله، فى سبيل تركيز الأمة على معادلات الفهم و الادراك، لتخليص ذاتها الانسانية من الجهل، و الحزن، و التردى، و الاستعاضة عنها بالوعى، و الفرح المؤمن، و التحقيق المنور... سيكون الامام زين‌العابدين تركيزا موجها لأمة تعتمد العلم فى توجيهها الأصيل... و سيكون ابنه الامام الباقر استمرار المدرسة العلمية هذه، و سيكون حفيده الآخر الامام جعفر الصادق توسيعا باهرا لجده زين‌العابدين. [صفحه ۴۳]

نقوش الظل

مع الولادة

شاهزنان

لقد كان لتلك الليلة الطويلة صباح ضائع بين بسمة هزيلة من فرح، و قبضة حزينة من هلع. فشهربانو أو بالأحرى شهزنان بنت يزدجرد بن أنوشروان، زوجة الحسين بن على، انما هى طريحة مشلولة بألم مخاض صعب المراس، لن يتركها تضع ابنها البكر الا محطمة مكسرة الجناح. منذ أكثر من خمسة أيام و الأميرة الفارسية ملقوطة الخاصرتين بموجبات ممضة من ألم تطرحها فوق فراش من شوك و تعب. لقد انحفر الألم حفرا بليغا فى عينيها و أسارير وجهها، و لقد تلاشت به و هو يلفها بغلالة من زعفران، أما أصابع كفيها فهى

التى خدرها الارهاق مع هذا الليل الخامس الغائر الصبح فى العتمة السوداء، فارتمى ذراعاها فوق قماشات الغطاء، و تراخت أصابعها فى كسل الانشلال، من فرط ما انفتحت و انقبضت و هى تتلقط بكل ما يلامسها، عله يريحها من أثقال المخاض. أربع من أشهر قابلات المدينة كن يتناوبن السهر حول فراشها فى الغرفة الحزينة - و لكن الطفل المنتظر لم يلب أية عملية من [صفحه ۴۴] عمليات الاستنجاد، حتى يخلص أمه من آلام تعصرها عصرا، و بقى فى عناده الأصلب حتى مطلع الصبح من الليلة الخامسة، فترك الرحم المنهوكة و هو منهوك أيضا من شدة ما عاناه من وابل مغص دهك حشا أمه و أفرزه طفلا نحيلا، مسمر العينين، غائر العينين، هزيل العنق، شاحبا» مكمدا. كان الحسين بتمشى ببطء مثقل بالنعاس فى صحن الدار، فى ذلك الليل الذى طال، و لم تخطه بعد تباشير الصباح. لقد كان مطرقا او حزينا - أنه وحده الآن فى خضم من الآلام، فاخوه الحسن غائب عنه فى جبهات القتال التى حركها و أشعل نارها الكافر الجاحد معاوية بن أبى‌سفيان!!! منذ ليلتين جاءه رسول من الكوفة من قبل أبيه الامام، ليأخذ اليه خبرا عن شهربانو الحامل التى كان قد بشرها من قبل بولادة طفل بهى يرتبط به خط الامامة، و به يستمر اسم على فوق الأرض، و به ستنتعش كل رسالة الأمة، أمة النبى الكريم محمد. و لكن رسول الامام الى ابنه الحسين بقى فى المدينة منتظرا خلاص الأم من ثقل المخاض، ليأخذ الخبر المفرح الى الامام المصلى فى محراب مسجد الكوفة، حيث سيتناوله بظبة سيف، مجرم أخرق، اسمه ابن ملجم!!! - مسكين أبى، راح يقول فى مهجته الحسين، و هو مغمض العينين، و مسحوق النفس، و مشغول البال!!! ثم انتبذ زاوية الدار، [صفحه ۴۵] حيث توجد أريكة ممدودة يعطيها بساط من وبر الجمال. فجلس القرفصاء يتذكر أباه الامام - منذ أكثر من سنة مرت - كيف أنه حال دون بيع شهربانو كجارية فى سوق الاماء، و كيف حررها و هى أسيرة حرب، و خيرها فى أن تتزوج من تشاء من الأسياد - فأجالت عينها الكحلاء، و هى رضية سعيدة تتنقل فى أرجاء الدار، بقوام و شيق، و قد ممشوق من شجرة بان... ثم مدت اصبع كف هليلة بيضاء، و أشارت الى من تشتاقه عريسا لها، فقال الامام: - مبروك عليك يا شاهزنان - يا أميرة الجمال فى مبزغ ايران، و غزالة الحسن فى لفتة العربان. انه لك ابنى الحسين و هو وافد اليك من تحت قناطر الجنة. فاحمليه و طيرى به الى هناء يهزأ بكل عناء. و ليكن لك منه من ترفعين به رأسك الى كبد السماء. لم تتجدد هذه الذكريات فى خاطر الحسين حتى تلملم من مقعده و عاد يخطر فى صحن الدار، و ثقل المناجاة يرنحه ترنيحا. - ألا نجيتنى يا الله من مرارة الفقدان؟! انى أحبها حبا وسيعا يا اله المحبين! انها وصلة شهية من طهر، و وصلة أنيقة من حب! [صفحه ۴۶] و وصلة سنية و بهية من جمال... اننى خائف يا الله... أن تفجعنى بها و ترفعها الى سناك... فلينغض طرف الموت عنها يا الهى. و احفظها ساجدة معى أمام عرش بهاك. لم يتمتم الحسين بحروف هذا الدعاء حتى خر ساجدا أمام باب الغرفة التى خرجت منها امرأة فارعة الطول، و نقية كزهرة بلسم، و على صدرها طفل مخدر و لكنه يتنفس، و هو ملفوف بأقمطة سمراء، و ما أن لمحت السيد فى هبوطه الى الأرض، حتى هبطت قربه و هى تقول بصوت خافت مبلول بحنين: - الحمد لله يا سيدى... طفل ذكر يا مولاى... و سريعا ما أخذه الحسين بيدين مرتجفتين و هو يتمتم: الحسين: و الأمام يا غزالة... كيف هى الأم؟ غزالة: انها مرتاحة... صدقنى... و الحمد لله... بعد خمسة أيام ثقيلة كحجر الرحى، [صفحه ۴۷] و خمس ليالى منفغرة كأفواه الوحوش!!! انها تبدو مرتاحة. الحسين: عساها تنجو يا غزالة. لقد سميتك غزالة... سعدا لك يا أم أطفال هذا البيت ان اسم الحبيبة بالفارسية شاهزنان و معناه بالعربية: غزالة... اذا نجت و عاشت شاهزنان، فسيكون لهذا البيت غزالتان... و ان لم يسمح ربك و ربى... فستلبثين أنت - وحدك - غزالة هذا الطفل الذى سيربو فى حضنك الطيب، ان اسمه منذ الآن على الأصغر... و ضم الحسين طفله - برفق - الى صدره. ثم ناوله حاضنته غزالة - ثم انحنى يقبل الأرض فى صلاة السر - ثم نهض... فتح الباب... و على رؤوس أصابعه دخل... لم يتقبل رب الساجدين صلاة الساجدين! انه - وحده - العليم [صفحه ۴۸] بوطأة الأحكام و لغة الأسرار، و هو الغنى بكشفها العلنى، و لكنه الفارضها مرانا فوق رؤوس الخاشعين! فسبحانه - كل مرة - يملى فيها حكمه المكنون. هكذا خطفت حمى النفاس شاهزنان، من دون أن يتناول الصغير على قطرة واحدة من ثديها المحموم. أما غزالة البيت - بحدبها الرؤوم - فانها ذابت فى الرضاع المقدس، و توسع صدرها بالحنان الريان، من دون أن تعلم أن الذى تقطر فى حلقه العافية و الأود هو الذى سيكون - فى يوم آت - اماما سخيا و

تقيا، يصلى عن الناس جميعا حتى يتعافوا من مذلة الكفران... تماما كما فعلت من قبل حليمة السعدية اذ لقمت ثديها طفلا من دون أن تدرى أنه سيكون نبيا يسكب الله فى طوية الانسان!!! [صفحه ۴۹]

غزالة

و كانت غزالة فى الأيام الأولى شحيحة الدر؛ و هكذا كانت حليمة السعدية مع طفلها الذى حملته معها من المدينة الى طنبها المشدود تحت شمس البادية. لقد كان در صدرها فى المبتدأ شحيحا، و لكنه راح يغزر من يوم الى يوم، بمقدار ما كان ينمو حسها و هى تحدق فى الشفتين الممتصتين حلمتى صدرها: كم أنهما عذبتان تغدقان عليها شعورا لذيذا يوسع فيها الحب و تذوق الجمال، تحت هذا الجبين المفسوح بالمعانى الكبيرة الغائرة فى سحر من الابهام. هكذا أحبت السعدية طفلها الصغير، و هكذا أرضعته لبن النبوة، ألا يصح هكذا أن نقول؟ أليس الوجه المشع بالمعانى النفسية - الروحية الهاجعة فى التقاسيم، هى التى كان لها انسكاب تخميرى فى العينين اللتين كانتا فى حليمة سلكين يوصلان الدفء، الى جسمها الحساس، فتتأجج بالحب و تتوسع غدتا صدرها، و تتندى بالانصهار و تتلون روحها الذكية؟ و ذلك كله من دون أن تدرى و من دون أن تعلم؟ انها مفاعل الايحاءات، كمفاعل التخمير فى ملاقط [صفحه ۵۰] الكيمياء: تتشعب فى أجهزة الأجساد انعكاسات انعكاسات، تتسرب الى هنا و الى هناك، فى العين - و فى الجبين - و فى كل مخابىء السمات - انها مخازن النفس المتكومة اليها من المجارى البعيدة المتحوملة من حقول التجارب التى كان يعانى كل وطآتها الآباء و الأجداد، انها خطوط البناء النفسى - الحياتى الذى تشتاقه الذات الأصيلة فى الانسان - انه المجتمع الذى هو قوة و منعة الانسان. انها الصفات المشعة بمعانيها، تلك التى كانت سحرا، و هيبة، و ايحاء، و جمالا، فى تقاسيم الطفل البهى الأمين محمد ابن عبدالله الطالبى الهاشمى، و ابن آمنة بنت النجار، انه المتفرع من أرومة طيبة الجدود فى اهتماماتهم الأصيلة لبناء الانسان الطيب المهتم بصوغة المجتمع الذى هو ملاذ الأمة. و هكذا انفتل الايحاء انعكاسا فى غدة صدر حليمة، و هكذا غزر فى صدرها لبن النبوة... فسبحان الله تزخر بين يديه الأنابيب بالعناصر، تلونها و تلعب بها أصابع الكيمياء... مهلنى الى مثل هذا القول، اسم غزالة، المربية و الحاضنة. انها الجارية المأوية الى بيت الحسين - لقد كانت أم ولد - لا شك أن ايحاءات الجو الذى لازمته منذ بعض الوقت، قد لعب فى عناصر جهازها النفسى الطيب لعبته الكيميائية المتجاوبة مع حقيقتها الجميلة، فانصهرت مع آل البيت على اندغام شعورى و فى الارتباط - لقد أخذت بحب الحسين فى مطاوعة داخلية [صفحه ۵۱] المحور، أملتها عليها أشعة من طيب عنصره، كانت تنعكس على كل ملامح جسده، فى كل حركاته و سكناته: انه ابن على العظيم، المتين الخطو فوق الأرض، و البهى الملامح و هو ينقل عينيه عبر الفضاء - و انه ابن جده الرسول، المكفكف الأرض بمطارف النعيم. و غزالة - هنا - كحليمة السعدية - هناك - يبعد بها الغور من دون أن تعرف كيف تمشيه - انها المتأثرة بمهابة ما ترى، من دون أن تدرك كيف هى خيوط الجاذبية، و ما هو لون و عمق مداها. عندما أخذت الطفل الى صدرها كانت - ربما - أكثر قليلا من خادمة - ولكنها - اذ مرت بالحسين و وجدته ساجدا يصلى لخلاص زوجته من الموت - سجدت قربه، و كان سجودها هكذا، يرفعها الى سوية أخرى لفها ببعض مما يلتف به الحسين، و رفع قيمتها من مهبط الى مبهط. و عندما قرأت نبرات روحه فى عينيه، تحولت نفسها من شعاع الى شعاع، و أحست - من دون أن تفهم - أنها تحررت من ربطة تزنر خصرها بها أغلبية الجوارى، لترتبط بزنار آخر، هو الذى تتقدس به صدور الأمهات. لقد حملت الطفل الضعيف الخائر القوى، و العين و الصوت - و الخارج منذ لحظات من رحم شرفت بها الأمومة، و هى تتعصر اعتصارا بآلام الموت - حملته و هى خادمة حزينة، و لكنها كفكفته بخيط من دفء عندما ألقى الحسين على رأسها حبرة أم. [صفحه ۵۲] و لقد عطفت عليه عندما اختلت به فى ساعة أولى، و أرضعته فى أول ليلة من عمرها الجديد، قطرات شحيحة، لأنها ما كانت بعد قد غاصت فى حنينها المنشود. أما فى الليلة الثانية فانها كانت مهدومة القلب، و من أشد الباكيات حزنا على الأم التى مزقتها حمى المخاض. و فى الليلة الثالثة أحست بأن لها غدة فى صدرها بدأت تمتص ذاتها من ضفاف القلب، و هكذا راحت تنشط بها شفتى طفل، لا يزال كسل حزين يلقط عينيه

عن تلمس النور. بعد مدة وجيزة غير مطروحة من الذاكرة - و قد بدأ الطفل يوزع نظرات عينيه على الأكف التى تناديه الى غنج و الى شبه مداعبة - راح اللمح ينفتل بغزالة من حس الى حس آخر، يقوى فيه و ميض الوجدان. لقد بدأت تقطع مثل هذه المراحل المنوعة - مرة بعد مرة - مع نمو الطفل و شعوره المتزايد بالجو المشبع بالعطف و الحب اللذين هما له على وجه التخصيص المندى. كثيرا ما كان يدخل الحسين - فى ساعات وجوده فى البيت - الى الغرفة المحبوبة - و كانت السعادة تغمر وجه الأم الرضية، و هى تراقب الأب مغرقا عينيه فى عينى الصغير، و هو يداعبه من دون أن يشبع. لم يتمكن هذه المرة - و هو جالس على الأرض، و بين ذراعيه الصغير على - الا أن ينادى غزالة حتى تشاركه لذة الغوص. [صفحه ۵۳] و لبت غزالة، و بسرعة بريئة هبطت الى الأرض بالقرب منهما، و الحسين كأنه بشعر يتغنى: - ألا ترين معى يا غزالة: كم فى العين هذه من بعد قصى؟... انى أرى فيها جنانا لا تشبع من ارتشاف الكوثر... انى أرى فيها نعاسا لا يتعب من مجادل النور... انى أرى فيها قعورا عجيبة مرصعة بالقباب... و عرك الأب الطفل بين يديه و تركه الى ما بين يدى غزالة - و وقف مفتشا يمينا و شمالا و هو يقول: - أين أنت يا غزالة؟ ألا ترين معى ما أرى؟ و لكن غزالة حزرت أن مولاها فى خدر المناجاة - و أن الذى يره هو من وحى السياحات... فركعت على الأرض خاشعة تراقبه. و طفلها الصغير قد استسلم الى اغفاءة هنيئة. أم الأب، فقد بقى يتمشى و كأنه مغمض العينين و هو يستأنف القول. - انى أرى فيها أبى الامام، الأدعج العين [صفحه ۵۴] و الساطع النور، انه الامام على، ركيزة الأئمة، و شعاعهم الأبدى. انى أرى فيها جدى العظيم محمد... يسجد هناك لربه، تحت و فوق قباب النجوم. انى أرى فيها اماما يبتدى بتركيز الحق المنير... لا ينتهى الحسين من مناجاته تلك حتى يكون قد فتح الباب و خرج. و لكن غزالة الباقية وحدها مع الطفل على المغفى على صدرها، فانها انتفضت و هى تقول: - لقد فات وقت رضاعك يا طفلى العظيم. ان صدرى ينزف و ينثر من فوهتيه اللبن. الا استيقظ يا حبيبى و التهمنى. لقد جعلنى أبوك بكليتى غدة لك... ما أدركت حليمة السعدية أنها أرضعت نبى المسلمين لبن النبوة، الا بعد أن زارته و هو النبى. فأجلسها قربه على طرف عباءته، و لفها بها و هو يضمها الى صدره بذراعيه. و لكنها أدركته [صفحه ۵۵] قبل هذا الحين - بلمحها المشتاق - أدركته من سناء جبينه، و من غزلة عينيه. و ها هى الآن غزالة - ما أدركت أنها تلقم ثديها اماما سيعلم الأمة كيف تبنيها معانى السجود: و لكنها تأكدت من أنها ترفع طفلا نجته من لوعة اليتم. و سينجيها - بدوره - من ذل عبودية رفضتها مبادىء الاسلام. يا لحليمة السعدية، تستكل وجودها مكررا - مع مثيلتها غزالة - فى ردهات الزمان. هل هو التقمص؟! أم أنه توراث الصفات المتطابقة و المخزونة فى مجتمع الانسان - تتطور به و تشتد بنية الانسان؟!! [صفحه ۵۷]

الحسين

اشاره

أنه ظل من الأظلال الشفيفة، تتماوج فيه صفات تفيض من الجبين، و العين، و نعمة العنق، و تختنق بها بسطة الكف عبر أصابع لا يتلعثم فيها رونق التعبير. لقد حوشها كلها الى فسحة فى النفس. فهم متهاد اليه من علياء الضفاف - كانت مفاتيحه مرصودة الانفساح على جنان عزيزة الجنى و رفيعة العطاء. لقد كان أبوه ضفة النجوى، و كانت أمه ضفة النعمى، أما جده فكان الضفة الفيحاء، تدله بها، و بها غنج، و بها طابت رؤاه فى البعد المنيع، و بها عزت نجاواه فى العزم الرفيع. يا له - هذا الرفيع - سيمشى سيدا عزيزا منيعا، على قدمين من شوق أبلج، تقطعان به حر الصحارى، و صدى السراب، و ترميانه شهيدا يشرب دمه على كفه، و يسقى التربة المقهورة فى كربلاء! انه الآن أب لطفل ولد جديدا مع صبح مكسوف القمر، و غائز الزهرة فى هالة دغشاء. لقد رأيناه - فى نموذج طرى - كيف كان يقرأ ذاته فى عين طفله، كأنه يقرأ مقطوعة شعر. أنه الشاعر على كل حال، مجنح الفكر، و قدسى الخيال - لقد [صفحه ۵۸] صاغته رسالة جده و امامة أبيه شاعرا، و صاغه الوعد فى البناء النفسى المركز، و كذلك صاغه الاقتناع الضمنى الواسع الحدود. تلك هى حدوده

الأربعة: اثنان منهما فى وحدة التركيز، و اثنان آخران فى مهمة التجهيز. لقد كانت الرسالة عنوان الاطار العام، و كانت الامامة اطار التعهد، أما الوعد فكان اشتقاقا من حقيقة المصدر، و شعاعا نابعا منه فى حقيقة الصيانة، و حقيقة الانارة - أما الاقتناع فهو من الفلسفة ضلع العقل، و ضلع العزم، و ضلع الصدق فى حقيقة التبتل لقضية توازى - بمفردها - كل الوجود. فلنوسع - قليلا: التلميح

رسالة الانسان

من بامكانه القول: ان رسالة الاسلام صعبة الفهم و عاصية المنال؟ لو كانت كذلك لما احتوتها الجزيرة فى مدى عشرة أيام و عشر ليالى، و لما اختمرت بها أمم وسيعة من أمم الأرض، و تم بها تفاهم فسيح المجال - فلنقل: انها عميقة القرار و لكنها سخية رضية فى التفافها ببساطة لا يتعرقل بها الفكر و لا تتنابذ فيها نغمة الأوتار - ان لها البليغ من الأركان، و لكن لها النذر القليل من تعداد الأركان. انها التوحيد - أولا و آخرا - انها التوحيد توحيد الخالق، و توحيد المخلوق فى الخالق، توحيد الانسان فى الأمة، و توحيد الأمة فى الانسان - انها المساواة فى التوحيد، و انها الحق [صفحه ۵۹] و العدل فى المساواة - انها الحب، و انها الصدق، و انها العفة، و انها نبل الصفات، و تلك هى الوحدة العادلة و الجامعة فى الأمة المرصوصة بالانسان. أى شىء فى الأمة يجمعها، و يقيها من الانفراط، غير الوحدة العفيفة المشمولة بالصفات؟ فاذا تلفظت الرسالة بالأمة عنت بها مئات ملايين الناس، و اذا قالت الانسان، شملت به كل أمة من أمم الانسان - انها التوحيد البهى النازل فى الكلمة، و تلك هى نحافة الكلمة، و تلك هى ضخامة الكلمة، و تلك هى البساطة و الفرادة فى نحت الكلمة، و هكذا اذا أمرت الرسالة بالمعروف، و نهت عن المنكر، فانها تكون قد سكبت كل جواهر التوحيد فى الأمر و النهى الصائنين حدود الأمة فى بناء حقيقة الانسان. أى شىء هى الرسالة غير التوحيد، غير نشر الخالق فى المخلوق: عدلا، و حبا، و نبلا، و شكرانا، و وفاء، و وعدا بنعيم يستحقة الصادقون، و انذارا بجحيم يشوى بها المارقون؟! اليست الأرض فى مجموع أممها هى التى تبنى انسانها بمثل هذه الشرائع التى يسميها الناس مقدسة، و هى - فعلا - مقدسة فى بناء مجتمع الانسان. تلك هى الرسالة فى تركيزها الفلسفى و فى ميزانها الاجتماعى الرائع، و تلك هى التى نزلت نقشا فى وجدان الحسين، و التهبت بها مشاعره - أما الذى أنزلها نقشا، و أججها لهبا فى أسلاك النفس، فهو ذاته الذى اقتنصها من بحبوحة الفيض، [صفحه ۶۰] و خص بها آل البيت ليكونوا ركيزة القيمومة وعدة الامامة فى مطلع الغد.

الامامة

و ليست الامامة من غير جوهر الرسالة - فهى اشتقاق منها و ليس من سواها، تماما كما يمتد الشعاع من مبزغ النور، لا من انطواء النور فى عتمة الديجور. و الامامة - لغة - هى الأم بكل معناها الصحيح، فهى رحم فى تكوينها الممتاز. و بطانتها المقدسة. كثيرا ما تكون القضايا الكبيرة مضغوطة بحجم صغير، كحجم العدسة فى العين: فهى صغيرة صغيرة و حجم الفضاء و النور يمر فيها رواء - و كذلك هو حجم طبلة الأذن خلف مسرب ضيق الثقب فى هضبة البوق - و هدير البحار، و قرقعات الأعاصير، و صفير الجن، تتسجل كلها عليها و هى تميز فى ما بينها بلا عناء. انها لكذلك قضية الرحم فى حجمها المضغوط - انها تضيق و تضيق كأنها حق صغير لحضانة نطفة هزيلة هابطة من دنيا الخفاء - ثم تتسع و تتسع كأنها عالم واسع المدى فى انطباقها على جنين سيكون من ولادته انسان مغموس فى حنين روحى يخلد به مجتمع الانسان. [صفحه ۶۱] أسوق ذلك لأعنى أن الرحم بالذات هى الانسان - مزق الرحم تر أنك حطمت الكون، و شللت الوجود من عصب الانسان. و الامامة - بالنسبة للرسالة - هى الرحم المعهودة: نقشت لها البطانات الرضية منذ أن جالت الرسالة هيمنة فى البال. لقد مدت البسط كلها فى الواحات الظليلة حتى يتم عليها هبوط الوحى ملفوفا بكل سجف من سجف الخيال، و محفوفا بكل عناية تتعهد النطفة فى تنقلها من دلال الى دلال... أليس الاهتمام بسلامة الأم هو الأول و الأجدى، ليكون - بدوره - فاعلا فى تحقيق سلامة الجنين؟ تلك هى قيمة تحضير الامامة قبل أن يولد حرف الرسالة، و الا فان الرسالة جهض

قبل أن تولد... لا لعمرى، يقول المنطق الشبعان: ان من استنزل الوحى من واحة الوجدان هو العليم كيف يصونه بدفة القرآن. لقد صاغ الامامة، ثم أنزل فيها الرسالة، لتكون الامامة رحما من لون المخزون فيها، تتسع له و تتمدد به، أى لتكون من بعده، و من شأوه، و من كل حقيقته فى أى مجال: دما من دم، و روحا من روح، و حقا من حق، و علما من علم يتمكن من ربط الزمان بضلوع الزمان، و يتمكن من عجن الانسان بدم الله فى عروق الانسان. [صفحه ۶۲] تلك هى الرسالة، و تلك هى الامامة: انبثاقا من انبثاق، من أجل تعهدات يليق بها أن تكون مؤمنة، و هادية، و واصلة الى واحات موصوفة بجنان مشبهة بارم ذات العماد و يقول أيضا ذلك المنطق: ان آل البيت بالذات هم التعب الكبير المصبوب فى عملية التقطير و التحضير، تحضير امامة تتمكن من التعهد المقطور - انهم الطيبون الأوائل، و المعاينون الأوائل، و المعانون الأوائل، و المعنيون الأوائل، وعليهم ستبنى السدانة الجديدة... لم ينطق بغير هذا الوعد يوم الغدير.

الوعد

ما هو الوعد؟ و من هو الواعد؟ و من هو الموعود؟ الوعد هو القاء مهمة التعهد على كاهل متين يقدم للأمة رسالة نبيها الكريم، حتى تنفض عن عينيها غبار العصور، و تبنى خطواتها من جديد نحو مجد و عز يحققان فيها قيمة الانسان... الوعد هو تمتين الامامة بمفاهيم الرسالة التى هى كل العمق، و كل العلم، و كل الفن، و كل الادراك، حتى يكون التعهد انبثاقا منها و تلاشيا فيها، على حصر لا فكاك منه كأنه المطلق... الوعد هو جعل الامامة فى مركز التثبيت الموحد: فلا رسالة بلا الامة، و لا أمة بلا الرسالة - انها فى وحدة بلا تثنية، كما هما السماء و الأرض، فى وحدة الله و بسطة الوجود... الوعد هو جعل الامامة ملكا لما تملك، بلا خيط فاصل بين جوهر و جوهر. [صفحه ۶۳] فالامامة واحدة و الرسالة واحدة، و الأمة كلها هى الاطار الجامع... الوعد هو جعل بيت آل البيت بيتا للأمة كلها فى حقيقة النسب الجديد البانى بيته الآن من حجارة مقلع واحد هو مقلع الأمة الأوحد. فالرسالة هى المقلع، و الامامة هى الرسالة، و الأمة هى الحصن المنيع، و الوعد هو المجنح.

الواعد

أما الواعد فانه الجليل العظيم الساكب الحق فى رسالة جمعت الأمة لتربطها بحقيقة الانسان... انه الآمر بالمعروف و الناهى عن المنكر، فى مجتمع أناخت به الترهات فنشفته غبارا، و قحلا، و سرابا - فسخا عليه من فيض نهاه، و اجتباه من جديد الى سماه، و رد اليه عافية - عصرها له - من كل واحة زاغت عنها عينه فلم تبصر الا و هنا من فرط عماه... انه الواعد الأوحد بعد انصرام القرون و انفراط الحقب، فاذا الأمة كلها تأخذ منه شدات العصب. سيظل الواعد الأول العزيز الأوحد بأمة عزيزة كريمة هادية، يضطرد بها السعى الى تكامل و اكتمال، اذا تمت لها الطاعة الوادعة، و المطاوعة الواعية، و ضبطت خطواتها فوق الصراط المستقيم - و عندئذ فهى أمة تضبط موازينها فى الفهم رسالة مدعمة بامامة حصيفة و حصينة، فى وحدة مؤمنة بالمثل المنزلة من هالات السحب. [صفحه ۶۴]

الموعود

أما الموعود بالامامة فهو الآن ابن المشار اليه بالبنان و العين و اللسان، انه الحسين بن على، و انه المعين فى الخط الأمامى، عينه جده النبى بلسان جده على، و لم يكن قد ولد بعد. ان سلسلة الخط هى المرسومة فى البال: من أب الى ابن، الى حفيد، طالما أن الرسالة تلقط الأمة فى احيتاجاتها اليها، من عهد الى عهد، و من جيل الى جيل، - و عندما تصبح الرسالة - عن حق - مرانا و ثقافة عامة فى الأمة، فان الامامة تصبح هاجعة فى مفاصل الأخيار و الأبرار، و تصبح السياسة فنا أصيلا يتعاطاها كل من ينتدب اليها، أكان طالبيا بالتخصيص، أمن من أى فرع آخر... ان الأمة - بعد مسافات المران - تكون قد تماسكت عجينتها، و طابت و حدتها، و التحمت

جدران بيوتها بروعة البنيان... ساعتئذ فلتفلت الوصية من قبة الاشارة و من احتياطات التحسب. لأن الضمانات كلها تكون قد فعلت فعلها المدهش فى بنية الانسان. ها هو الحسين الآن - و خط الامامة متلاعب به - فانه يشعر أنه هو، و أخوه و أبوه فى معرض الامتهان. و أن الرسالة - و بالتالى الأمة - واقعة فى ذات الامتهان. منذ سنتين فقط - و بعد لأى حزين - استعانت الساحة بأبيه حتى يتسلم زمام سياسة الأمة، تنفيذا لمضمون تلك الوصية فى يوم الغدير... و لكن الساحة بدت تحت خطواته كثيرة الارتجاف، بعد ابعاده عنها ربع قرن!!! ان عدم الأبه لتحسب [صفحه ۶۵] الوصية و احتياطها فى تجهيز الامامة، خسف الساحة و دق فيها سنانير الزور، لأن القبلية - وحدها - هزت ذيلها فى سقيفة العصيان - فانتشرت لحمة الصفوف، و انتكست الرسالة فى نموها الطرى!!! لقد ظن الناس أن الامامة حصر لمنافع سياسية - اقتصادية، تدر القوة، و الجاه، و المال، على المتخصصين بها، و هى محصورة - دوريا - بواحد من آل البيت هو أب أو ابن أو أخ أو حفيد للامام المعين الآن فى لوحة الصدر. قد لا تكون الأمة و قيعة مثل هذا الظن، و لكن الراجح هو أن أركان السياسة المحلية الذين لم ينسوا بعد مغانم الحكم العتيق، هم الذين سيطروا عليها بهذا الابهام، فقسموا الرسالة - أمامها - الى شقين: شق روحى - حياتى - مثالى - مآلى؛ و شق سياسى نفوذى - تسلطى - وصولى؛ من دون أن يأبهوا الى كون الرسالة وحدة قائمة بذاتها، و أن السياسة مشتقة منها لتعهدها فى النشأة و النمو و الفلاح. لقد احتوت الرسالة الأمة، مع العلم أن آل البيت هم ركن الرسالة؛ و أن الرسالة كلها بكل ما فيها من تعميم و تصور و تحديد - هى الرسول و النبى العظيم محمد، و أن الامامة المركزة على الامام على، ليست مشقوقة عن الرسالة، بل هى المدموجة بها على التحام، و انصهار، و انضمام... فما بال الذين يأخذون الرسالة [صفحه ۶۶] مشقوقة عن الامامة؟!!! ألا- تراهم قد خبلوها، و مشوا بها مجزوءة، من دون ركنها الأساسى؟!!! ان معارك يوم الجمل، موصولة بمرجوحة النهروان، مفروزة الى تزوير مصاحف عثمان فى صفين... تشهد كلها أن انقطاع الرسالة عن خطها الأمامى المدروس و المرسوم فى سيرها المنظم، هو الذى أوقع المجتمع فى اضطراب الفجوات، و آفاق فيه قديم النزوات، و أنساه أنه موعود بامامة تسير به بانضباط ملحوم بوحدة سماوية و وحدة مكانية، تقطع بها أشواط العمر، برفاهية عاقلة، هى ثواب المجتمع المبنى بالعقل النير و الايمان العفيف. [صفحه ۶۷]

الاقتناع

كثيرا و بليغا ما تترك المعانى الفكرية - الروحية و شما ناضحا منها فوق بسطة الأجسام. أن للأسارير فى خطوط الوجه و تجاعيد الجبين، و لخفقات المدى فى لفتة العينين، و للعج القلب و الفكر فى رهج الشفتين. أثرا نفيسا تأخذه المراقبة الذكية و تقرأ فيه أمواج الروح فى صاحبها، و مخابىء النفس فى طواياه. و أظن أن نمو الجسم - حتى - و نوع تأوه الحركة فى اليدين و الرجلين و الأوصال - هو خاضع أيضا لذات التموج الفكرى - الروحى المتمركز فى باحة الجسم، لتكون تعبيرا عن مدى توحى به الأوامر المنطلقة من خبايا الداخل، لتصبح بدورها - هذه الحركات - مصبوغة و مدموغة بذات التعبير و طول الملازمة. ليت لى أن أرى جسم الحسين و وجه الحسين، بعينى، كما أراه الآن بفكرى و شوقى، بعد فاصل طويل من القرون، حتى أسبر غور حفر العزم و الروح فوق لوحة بدنه: كم هو عميق فى تجاعيد الجبين، و كم هو مشع و حارق فى رمشة العين، و كم هو رحال المدى فى نقلة قدمه، و كم هو رقراق الموج فى معصمه، و كم هو أنيق العنق فى تلعها فوق المشارف. [صفحه ۶۸] انى ألمحه - هذا الحسين - بعد اقتناعه الكامل: بأنه مدى جده الرسول فوق الأرض، و وصلة ابنه الامام فى مدارج الظل، و بأن الرسالة هى كل المدى المفتوح على مجالات الأقاصى، و بأن الامامة هى فى الرسالة دوى الرسالة و ظلها المقرون، و بأنه من الرسالة و الامامة ذوب شمس لا يشربه غير الظل، و بأنه فى مقالب الرسالة و الامامة و صلة شعر فى موجة حق و دمجة مطلق، و بأن الامامة عقب موصول بعقب، الى أن يفيض الله فى عين الأمة و تحترق عنها مياسم الذل. هكذا لمحته محفورا بمداه. و هو يقرأ ذاته فى عين طفله الصغير على، و أمه غزالة تسكب فى حلقه لبن الامامة. سيشد رحله الليلة صوب الكوفة، حتى يرعى - بالقرب من أبيه - امامة مقهورة العين، يتنزى بها حبك الشياطين، قبل أن يكمل دوره فيها

الامام الأول! سيكون معه - فى الحاشية - صغيره الامام على - حتى يغرق عينيه فى عين جده، و يرى فيها مدى البصيرة، و يتعلم منه حكمة الأيام. [صفحه ۶۹]

الكوفة

للجزيرة الأم متنفسان طريان يغدقان عليها النسم و الندى و الظل، و يخلصانها من كذب السراب و جفاء الهجير. واحد منها ينفتح بها على الشرق و ينقلها - على امتداد الصحراء - الى العراق، عن طريق طويل تمتد خطوطه على متعرجات المقاطع فى فجوج الرمال، و لا تتركز ملامحها الا فى مكان اسمه «واقصة» و هى دائرة تتفرع منها دروب ممتدة - من جهة - نحو الكوفة و البصرة و ما أحاط بهما من سهول يرويها الرافدان، دجلة و الفرات، و من جهة ثانية نحو المقاطع المخضرة، يلونها الرقراق بردى، و يكسوها - فى الغوطة - بالزهر، و السندس، و العطر، و الظل المرتاح. أما المتنفس الآخر، فهو الذى يصلها من جهة الغرب - عن طريق وادى سرحان - بالمرواح الشهية، تتندى بها مرابع القدس و سهول بيسان، فى بوح من مياه الليطانى، و الأردن، و كل المجارى المتدفقة من تعاريج الجبال فى لبنان على شاطىء مغناج ممتد من البحر الأحمر الموصول بالأبيض الأزرق المكفوف بجبال طوروس فى أركان الشمال. [صفحه ۷۰] منذ القديم القديم و الجزيرة الأم تروح عن صدرها المثقل بالنار و الغبار، بهذين المتنفسين الوريدين اللذين كانت تتخفف بهما من غوائل ما يصيبها من ضيق فى التنفس، يتردى بها - ان لم تعالجه بالنزوح - الى عوارض الاختناق! من هنا كان تموج الهجرات التنفسية مع الأوائل الملموحين: بالأشوريين، و البابليين، و الأموريين، و الآراميين، و الكنعانيين الفينيقيين، و كلهم تدفقوا و التحموا بالجدود الأوائل المسمين - مثلا - بالأكاديين السومريين الأصيلين المتجذرين فى الأرض منذ الأبعد من تساجيل التاريخ المضبوط بالأبجديات. تلك هى الأمة فى تكوينها الأصيل - انها الالتحام المجذر من حاصلين: حاصل فائض عن رمال الجزيرة، و حاصل آخر هو فى حقيقة الانذغام بالأرض المطيبة علميات التنفس، و التى هى رئة متسعة تنقى دم الجسم من كدره، و تضفى على خلايا الدماغ صفوة الفكر و برزات الخيال. ان التوحيد - فى النتيجة - هو الحاصل فوق الأرض - حتى يطيبه الفهم، و الأذعان، و الاستقرار فى الواقع الاجتماعى - الحياتى - التاريخى المتمادى فى الوجود. فليتكرر الانتقال، أو فلنقل: الامتداد - اذا استهوانا وقع الكلمة - مع الفتح الاسلامى الجديد، حتى تنال الأمة كلها مما أصابت من جدوى السماء. و ليكن لوقع خطوات الامام على حفر بليغ فى «واقصة»، ينقل بها نقوش الامامة الى الكوفة، و البصرة، و كامل أرض العراق، و يتدبر - من هنا - شؤون الرسالة ليجعلها [صفحه ۷۱] نظيفة «كالشعاع»، و بهية كالمصدر الذى انزلقت عنه، و ليكن المسجد - فى الكوفة - مركز صلاته، و مهبط جسده، و مغسل رأسه، و مدى أبديا لذكرى تدوم كما يدوم البهاء من مبزغ الضياء. [صفحه ۷۳]

على الصغير

و وصلت قافلة على الصغير الى الكوفة بعد عشرين يوما من سفر مسرى على نسم الليل، و على ضوء القمر، و مطوى فى النهار تحت الأطناب اتقاء لفح الشمس و شدات الهجير. كان يسبق القافلة أسعد الهجرى، على ظهر برذون ذكى أسود، انما الهجرى هو حاجب الباب عند الحسين، و هو أمين سره و حارس دربه - و كان دائما يسبق القافلة بمرحلة تقدر بساعة، حتى يكشف الدرب و يتأكد من سلامة المرور، فاذا لمح ما يريب، قفل راجعا للتنبيه و أخذ الحيطة، و الا، فانه يكمل السير حتى المحطة المقبلة، حيث ينتظر وصول قافلة سيده الحسين، و هكذا كان يتم الانتقال حتى بلوغ الكوفة. عرف الهجرى، فى تلك الليلة، عند الوصول الى محطة «واقصة»، المستديرة التى تتوزع منها المفارق: يمينا نحو الكوفة و البصرة، و يسارا نحو تدمر و الشام - أن المنطقة كلها، ابتداء من «واقصة» و مرورا بمحطة «مياه العرب» و «الحاجر» و «جل لعلع» حتى «القطقطانة» شهدت تعديات مذلة للعرب، فرض فيها جمع الصدقات، و دخول البيوت من دون استئذان... مرة أولى مع عبد [صفحه ۷۴] الله بن مسعدة الفزارى الذى وجهه معاوية أيضا لتذليل العرب وصولا

الى الحجاز - و لكن الامام أميرالمؤمنين، جهز قوة عسكرية بقيادة المسيب بن نجبة الفزارى دحر بها ابن مسعدة و أرجعه الى الشام - و كذلك - منذ عشرة أيام - جهز الامام قوة عسكرية أخرى بقيادة حجر بن عدى الكندى، دحر بها ابن قيس، و جعله يتقهقر على أعقابه، من «القطقطانة» حتى «واقصة»، و راح يتعقبه اندحارا حتى صحراء تدمر. لقد انتظر أسعد الهجرى، وصول قافلة الحسين الى «واقصة» فاطلعه على صحة الحدثين - فتركوا المحطة سريعا و غذوا السير ليرتاحوا فى محطة «الخزيمية»، و من بعدها يقومون، باستئناف السير. بعد عدة أيام، و مع الصباح الباكر عند بروز الزهرة، و صلت القافلة الى الكوفة. تتمثل القاعة الوسيعة التى تم فيها اجتماع العائلة بدار فسيحة قانعة ببسط سوداء الخيطان، و بمقاعد واطئة عليها طراريح نظيفة مكسوة باردية محوكة من و بر الجمال. اما الحيطان فكانت مزينة بقبضات سيوف مقصفة النصال، و بدروع مصدأة الزرد، منقحة بثقوب تمكنت من أحداث ثلماتها رؤوس السيوف المقصفة و الباقية مغروزة فيها لاحياء تذكار ساعات الجهاد. فى هذه القاعة نرى الآن الامام رابضا كالحيدر فى صدر المكان، و من حواليه يمينا و شمالا: الحسن و الحسين، و أمامه فى [صفحه ۷۵] صحن الدار أسعد الهجرى يسند من الوراء ظهر الغلام على الذى ترك حضن أمه غزالة و راح يمشى صوب جده الكبير الذى يلوح له بيديه الممدودتين حتى يقترب منه ليضمه الى صدره المشتاق. يبدو أن قدمى الغلام تتقويان الآن بما يقارب السنتين من العمر. انهما ثابتتان، تخفرهما يدان مبسوطتان، لا تتثاءبان، و لا تخفقان، كأنهما من الفخذين فى وحدة الحركة، و فى ذات الشد، و ذات المد، و ذات الميزان، مع انتساق فى الكتفين، تحت رأس مسحوب منهما فى انسكاب أنيق الصلب خفيف الزيغان. اما العينان ففى فتور غنوج تلعب فيهما بسمة مغسولة بكسل لا تدرى هل هو حول أم انه دهشة من كحل، أو انه حزن رخى زرعته فيهما - قبل أن ترحل - أمه شهزنان. و توقف الغلام عن قطع خطوتين - فقط - تصلانه بجده الامام، كأنه تهيب الارتماء بين ذراعيه... و غرق الامام - بدوره - فى صلاة ساجدة، و هو يتأمل الغلام فى سبكة قده، و ما عتم أن قال، باغماضة عين و نهدة رأس: - سبحان الله، لقد تنبأت لشهزنان و هى فى بالى كأنها مريم - بذكر يزهو به المكان... يا لجبريل، يبشر مريم بغلام سخى!!! و يا لى أنا... تنمو على لسانى ذات البشارة!!! [صفحه ۷۶] و ها هى الجنان كلها تنكسب علينا. هنيئا لك يا ابنى، يا الحسين. - يا سيدا من أسياد الجنة - تضبط المكان بألغاز الزمان، و تحيى الرسول بنسل الرسول، و تسكب فى قلبى العزاء، و تلبى النداء بأسرار النداء. و انخفض الامام بيديه أمام الصغير، و بسرعة كالانخطاف، كان هذا الزين بين ذراعى جده، فى حضنه، فى وسيع باله، فى دوحة عينيه... اما الجميع فكانوا فى سجود الفرح، فى سجود الدمع، فى سجود الصمت، فى سجود السكوت... بينما كان الطفل يغوص فى عينى الامام، و أصابع كفه اليمنى تلعب بعثنونه، و أصابع كفه اليسرى تغفو تحت ابطه، راح الحديث يدور من الكوفة الى البصرة، و من مكة الى المدينة، و من تدمر الى غوطة الشام. قال الامام: - أرجو يا حسين أن تكون قد غسلت روحك من وطأة الحزن على شهزنان... لقد أعاض الله عليك بهذا الغلام الذى سيستمر به مشدودا حبل الامامة - انها وصية جدك الكبير يا ابنى، [صفحه ۷۷] فكفكف حزنك بعزاء تمتد به الرسالة فاعلة فى الأمة التى هى أمة جدك و أمتنا سواء بسواء! و كأنه أتى من مجال بعيد، أجاب الحسين: - بالتمام كما قلت يا أبى - لولا رسالة جدى - ملفوفة بك - لما كان لى، من وجودى، شىء أحزن به أو أحزن عليه. انى الآن أصبحت أدرك أن خلو الأمة منا هو كخلو السراج من الفتيلة، هكذا أراد جدى أن تكون فتيلة السراج، و من دون الفتيلة لا ضوء و لا سبيل انارة، فسبحانه تعالى يتعهد خلقه بالدراية، يزرع الرسالة فينا لنكون - بدورنا - قبسا ننقل العلم، و الحق، و نستمر بنقل الهداية. الامام: أصبت يا ولدى... ان الزيت فى السراج هو مخزون الرسالة، أم الامامة فهى التمرس الذكى، و المران المتنسك - فاذا فقدتنا الأمة، فمن يكون البديل الأصيل؟ هذا أنا فى حرصى على سلامتكما، يا ابنى الحسن، و يا نجيى الحسين، فاذا أضيعكما فى زحمة الأحداث... فمن أين أتمكن من أن آتى بمثلكما؟ و أنتما المزروعان فى بال جدكما [صفحه ۷۸] و هو غائص فى سجوده فى غار حراء: أنتما نزول السماء فى جنانه، و مهبط الوحى فى وجدانه - لقد وصلكما بالرسالة بخيط امامة لا تشرب الا زيت السراج. لقد غرق الامام - فعلا - فى ذهول و هو يتلفظ بهذا الكلام الذى ابتدأه عاليا، ثم راح يتدرج به الى خفوت ملحوظ، كأنه يريد أن يسكبه سكبا فى أذن هذا الصغير المالىء الآن حضنه. لقد لحظ انه يغفو تحت وطأة الكلام، و عندما سكت

الامام، فتح الطفل عينيه كأنه يطلب المزيد... اما المزيد فانه جاء من الحسن و هو يقول: - ما أكبرك صادقا - أبدا - يا أبى! انى أتذكرك و أنت خارج من معركة الصلح فى صفين، اثر عملية رفع المصاحف كنت أنت المريد الأول و الأحزم فى خوض المعركة حتى النصر، و لكن أغلبية الناس ما طاوعوك، لقد أرادوا الصلح بحجة حقن الدم... فتهيبت أنت الموقف، و صمت... ثم رضخت... و أدركت أنا سر صمتك آنذاك، و معنى رضوخك... لقد أدركت معك، أن النصر فى الساحة قد ايتعد - و ان الانكساف كله سيتناولنا جميعا اذا استمررنا فى العراك بقوة أصبحت هزيلة بعد أن فرط تلثيها التقاعس، [صفحه ۷۹] و الجبن، و عدم التبصر!!! ألا تسمح لى يا أبى أن أحيى الآن الحوار الذى دار أمامنا بينك و بين عبدالله بن وديعة الأنصارى؟ لقد قلت له فى تلك اللحظة: - «ما يقول الناس فى أمرنا عن صفين؟» - فأجابك: «منهم الكاره له، و منهم المعجب به». فشددت عليه السؤال بوجه آخر: - «ما قول ذوى الرأى؟»، فتحفظ و أجاب: - «انهم يقولون: - ان عليا كان له جمع عظيم ففرقه، و كان له حصن حصين فهدمه... فحتى متى يبنى ما هدم؟ و يجمع ما فرق؟ - فلو انه كان مضى بمن أطاعه - اذ عصاه من عصاه - فقاتل حتى يظفر أو يهلك، اذا - كان ذلك هو الصواب!!» - و كان جوابك مقهورا و أنت تتمتم به: - «ما غبى ذلك عن رأيى، يا عبدالله، يا زينة الأنصار،... و لقد هممت بالاقدام على الموت». فنظرت الى هذين الشاخصين الآن، امامك، - الحسن و الحسين - فعلمت أنهما - ان هلكا - انقطع نسل محمد... فكرهت و أشفقت على هذين أن يهلكا... ما انتهى الحسن من تعليقه، حتى وجد أباه قد انكب يقبل [صفحه ۸۰] الطفل بين يديه، ثم يدعو أمه غزالة حتى تقترب و تأخذه، فانه قد لاشاه النعاس. فهرولت بسرعة، و تناولت الطفل، و الامام يقول لها: - أنت مرضعة امام يا غزالة. فطوباك من أمعظيمة كحليمة السعدية، لقد لحمت شهزنان صدرها بصدرك، ستكونين معها - كمريم أمعيسى - و ستأكلان اثنتاكما من ذات الرطب. و انسحبت غزالة، و غمر من جمال يسربلها و هى تقطع الباب الى باب الخباء. ما طال الصمت أكثر من دقيقتين، حتى قطعه الحسين بالاستفهام: - و الى متى يا أبى سيبقى معاوية متماديا فى تقطيع الأوصال؟ بالأمس، و نحن قادمون الى الكوفة، علمنا فى «واقصة» بحملة ابن مسعدة التى وجهها معاوية نحو تيماء، و علمنا أيضا بحملة الضحاك بن قيس التى وجهها أيضا معاوية قصد تشويش الخطوط من «واقصة» حتى الحجاز! و لقد تمكن المسيب بن نجبة و حجر بن عدى، من دحر الاثنين و ارجاعهما الى تدمر و الشام، فهل سنبقى هكذا، مشغولين بمعاوية من دون أن تتخلص من كفره و نكرانه؟! [صفحه ۸۱] و انتفض الامام قليلا و أخذ الحديث: - اسمعنى يا حسين و صدقنى فى كل ما أعنى و أقول: انهم دائما بنو حرب، كأنهم الأسافين المدقوقة فى حجارات الأساس، يخلخلون المداميك و يزعزعون البناء! و انها الأمة أيضا فى جدية التخصيص... انها بحاجة الى تركيز يثبتها فى الحق، و يعلمها الغوص فى مدارج النفس، حتى يتمكن منها الصواب، و الفهم، و الادراك... انها الأمة الأصيلة... فليكن لنا أن نقر لها بالأصالة، و لكن العياء الطويل قد نكبها عن حقيقة البناء، و حرمها نعمة العلم، و أوقعها فى غباء كثيف تلبسته فى قبليات لها شردت بها عن حقيقة جوهر الانسان، اذ جعلت الفرد فى القبيلة رقما عدديا لا اسم له فى معرض التعريف، و لا قيمة يزدان بها فى لقطة الميزان... ان الفرد - و الحالة هذه - هو فى عداد الحيوان، و ليس فى مصاف الانسان. ذلك هو واقع الأمة بين أيدى مشايخ القبائل، جاءتها الرسالة لتستعيدها انسانا يكون له اسم بحد ذاته، و له حد كريم، و له نفس عزيزة... جاءتها الرسالة لترفعها قيمة عددية [صفحه ۸۲] من الفين - فلنفرض - فى عدد أشياخ القبائل، الى ملايين لا اسم لكل واحد منهم معرف عن الذات، كأنهم من ضمن اعداد السوائم!!! - تلك هى الرسالة - يا ابنى يا حسين - جاءت تجلو هذه الأمة التى كانت تعبر «واقصة» منذ زمن سحيق، و لا تزال تعبرها حتى اليوم: الى الكوفة، و البصرة، و أرض صفين - و الى تدمر، و الشام، و الغوطة، و مرابع فلسطين... لقد جاءت الرسالة تجلو هذه الأمة، بأنسانها القديم و أنسانها الجديد - بأنسانها العابر «واقصة»، و أنسانها العابر وادى السراحين،... انه أنسانها المتفرع عنها منذ عشرات آلاف السنين، و انه أنسانها الذى لا ينسى جذوره، و لو بعد عشرات آلاف السنين... لقد تعقبته الرسالة من حيث امتد الى حيث اشتد - تعقبته حتى تبنيه انسانا عزيزا، لا ينسى آباءه، و يستمر فى أبنائه، و يعيش باحترام الجدود. و هان نحن الآن - يا ابنى - أولياء الرسالة تنشر عزا و حقا، توقظ بهما أمة وسعها المجد فوق الأرض، لنعيد اليها مجدا ضيعته فى سرى الليل العتيق... اما معاوية السفيانى المستنجد

بقبليات قتلت فينا قيمة الانسان بين [صفحه ۸۳] أحضان المشايخ، فاننا لم نتخلص من سفيانيته بعد، حتى تستقيم خطواتنا فوق المعابر. انه لى أن أكمل السير، و انه لك يا ابنى يا حسن - أن تتابع مثلى السير. و سيكون لك يا حسين أن تشرب أيضا كأس الخل عندما يأتى دورك - و أنت تبعث رسالة جدك فى النفوس حتى تستقيم النفوس و تعى وجودها فى حقيقة الانسان... يا لجدك الذى يبعث الحياة فى الأمة حتى يحيا هو فيها، و حتى نحيا نحن فيها، فلا هو يموت، و لا نحن نموت. [صفحه ۸۵]

نبذات

ابن‌ملجم

لا- يزال اسم هذا الحقير يقفز الى البال كلما مر بالخاطر اسم الامام على، و لو بعد تصرم أربعة عشر قرنا من قرون السنين... أيكون للاسمين - هكذا - أن يعيشا متلازمين فى ذمة التاريخ: واحد تتمجد به قيمة الانسان، و آخر تتلطخ به قيمة الانسان... أم أن الخديعة التى نقع فيها هى - دائما - فى اننا اذ نسمع خببا، نذكر حافر الحصان قبل أن نتمثل طلة الحصان... لعمرى، ان الحافر، و لو كان من الحصان فى عزم الحصان، هو غير العز الذى يتلقاك به صدر الحصان... تماما، كابن ملجم - فى اسم انسان - يضرب حافره فى صدره الامام!!! يا لذل المسافات، بين انسان و انسان، كذلها بالتمام بين حافر و حصان... و ضرب ابن‌ملجم حافره فى صدر الامام و دحرجه صريعا فوق التراب، تماما و هو متصل بربه فى باحة المسجد!!! يا له من بطل نجى الرسالة من كفر الامام، و عقل الامام، و مسافات الامام!!! [صفحه ۸۶] كأن الجزيرة كلها كانت فى عناية ابن‌ملجم يفتش عن كل موبقة فيها، ليخلصها منها، و يبنيها من جديد بناء صحيحا... هكذا قالت له الحبيبة القطماء، و اسمها قطام... أغرته بالحب، و منته بالوعد، و بشرته بالجنة ان أقدم و أراح الكل من... يا للمرأة الباهرة التى خلصها الحب العفيف من الوأد الكافر، و صاغ لها قدمين جميلتين تمشى بهما فوق الرمال.

و الأمة؟

لقد وصفها لنا الامام - منذ لحظات - بانها أصيلة، و لكنها تعبت من حمل أصالتها فوق أكتافها و هى تعبر - على مدى آلاف السنين - فيافى الرمال و حرائق الحرات... و لقد اجتازت، بقوافلها المزدحمة فوق الخطوط، كل المعابر المغبرة بالسراب و الهجير، و ألقت رحالها فى واحات اليمين، و فى واحات الشمال، و فى الواحات النابتة من تحت المجاذيف، فاسترجعت - حيث حط بها الحنين - نشاطا من عزمها الدفين، و راحت تبنى ذاتها، حيث حلت، من دون أن تنفض عن قدميها غبار ماضيها القديم!!! لقد جاءت قبائل قبائل، و عاشت فوق الأرض قبائل قبائل، من دون أن تدرى أن الالتحام الصحيح بالأرض يجعلها قبيلة واحدة مزروعة بعصبية واحدة تمتنها وحدة الأرض و لا يفتتها تعداد القبائل. انها الأمة الحاملة تفتيشها فوق الأصقاع، و هى التى جاءتها [صفحه ۸۷] الرسالة تعلمها توحيد الله بتوحيد ذاتها و تنظيفها من مرض القبلية المفرطة فى توزيع الولاء. ان للأمة الموحدة أرضا واحدة تجمعها لولاء واحد نابع من مصلحة جامعة، تلحمها مثل واحدة كريمة تبنيها - وحدها - بلا شرك يفسد الايمان بالجوهر الفرد. فلتتعزز الأمة بقوله الكريم: - «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون» (سورة آل عمران، الآية. ۱۰۹) - «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله» (سورة آل عمران، الآية. ۱۰۹) - «لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه...» (سورة الحج، الآية. ۶۶) - «فأرسلنا فيهم رسولا منهم...» (سورة المؤمنون، الآية. ۳۱) - «و ان هذه أمتكم أمة واحدة و أنا ربكم فاتقون» (سورة المؤمنون، الآية. ۵۱) - «و كذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى و من حولها...» (سورة الشورى، الآية. ۶) [صفحه ۸۸] - «انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» (سورة الزخرف، الآية. ۲) - «بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة واحدة و انا على آثارهم مهتدون» (سورة الزخرف، الآية. ۲۱) هذا ما قدمه النبى العظيم لهذه الأمة، و هو واحد منها فى

تسلسل التاريخ، و لقد تقبلت هذه الأمة دستوره الحياتي الجديد، و راحت تتوحد و تتجدد به، و ذلك هو كل ما اقتنع به الامام على، و كل ما انتدب نفسه لترسيخه، حتى تتمكن الأمة من لم شعثها و استرجاع أصالتها، و نبذ قبلياتها الى قبيلة واحدة مؤمنة بالوحدة العظيمة التي هي منية الرسول، و منية البيت الذي هو بيت الرسول، و بيت الامامة، و بيت المجتمع في آن واحد.

و القبلية؟

ان القبلية - وحدها - هي التي قتلت الامام! ليس لانه عبقري يندر أن يأتي بمثله نسل الانسان، بل لانه - بالاضافة - طالبي سيحصر الامامة و السياسة في صلبه، من دون أن يدعها - تحلم بهما - كل قبيلة من مجموع القبائل الأخرى التي تتبعثر بها الحرات، و الأحقاف، و الأرباع الزاحفة الى الخلاء من كل تحقيق يتمناه حضور الانسان! انه الظن الأثيم الغارق في الجهل، و البعيد [صفحه ۸۹] عن أي مضمار!!! فالطالبية - في منطوق الرسالة التي حظيت بها أقحاف الجزيرة، و حراتها، و ربعها الخالي على السواء - انما هي حصة الأرض الباقية لها من واحاتها المقدسة، و هي الآن، من حضن الرسالة، طلقة رائعة أرفع من قبلية، و أبعد من طائفية، و هي - بذات الوقت - عصبية كثيرة الالحاح على صهر القبائل كلها في الوحدة الممتازة الصائنة الأمة من أي انفراط. ذلك ما وعاه الامام من طالبيته التي نبذها و اعتصم بها امامية - رسالية - توحيدية، تغطي الأرض كلها التي وطئتها الجزيرة و هي تفتش عن أودها منذ عشرات آلاف السنين. انه لم ير الرسالة وحدها في الضمانة الرائعة المحققة أمة تنسى قبلياتها، و تعتصم بوحدتها الأرضية المفعمة: بالخير، و الحق، و العدل، و التقوى، و كل معاطف العلم، و الفهم، و الادراك، ليكون لها انسان نظيف مقتنع بالمنطق، و مؤمن بأن الأمة كلها هي الحوض الوحيد الباني جنة الانسان، و الصائن قيمة الانسان. ان الانسان هذا المبني بالفهم، و الوعي، و الصدق، و الادراك، هو مطلب الامام، يبنيه، صرفا - بالتقوى و العفاف، حتى ينجي الأمة من أي لص - كابن ملجم - و من أي حاكم - كمعاوية - يحتال على القبائل - باسم الرسالة - حتى تملأ خزائنه - من عرقها - بسبائك الذهب، يرقص بها فوق الجماجم، ابنه الخليع يزيد!!! [صفحه ۹۰] و لكن القبلية - بقيادة من حركها منذ ثلاثة عقود - تشددت الآن بابن ملجم، انعشت معاوية، و طرحت عليا الى الأرض، ليكون للحسن أن يتحمل أعباء الجريمة بمحاولة جديدة انتقلت اليه، و هي من جوهر المهمة الملقاة - أصلا - على عواتق الأئمة.

و الامام الصغير على؟

و الامام الصغير على، و عمره الآن أكثر من ثلاث سنين - ما حاله و قد خسر جده؟!! و هو له أكثر من جد، و أكثر من صديق،... انه بالنسبة اليه: أمرح ذراعين، و أطيب شفتين، و أعذب عينين... انه حضن، و انه غنج، و انه رقص على الكتفين... مع الصباح يراه، و يعلو صدره، و يعلو كتفيه... و مع المساء يدغدغه، و يحفر اذنه بأصبعه و يغفو على زنديه... كأنه وحده هو المناديه، و كأنه وحده المعلمه مد النداء... انه الآن يصوغ الجمل على هواه فيقول: - جاء جدي، فأين أنت يا حسين... افتح الباب... جدي في الباب... و على أمه غزالة ينط نطة السنجاب... انه يطرحها أرضا و هو يقفز من باب و يتلطى خلف باب... ثم يدنو منها، يعتلي ظهرها و يثغثغ: - لما أقول لك قومي قومي يا أمعلي، و اذا [صفحه ۹۱] ما قلت لك قومي - خليك في بطن الدار. انها كلها جمله التي أصبح ينتقيها على ذوقه و يلحنها على موسيقاه. فكيف سيكون له أن يلحن؟ و قد خلت الدار من جده المختار!!! انه المدهش هذا الفتى الصغير، بعينيه الذابلتين، و جبينه النضير. لقد تقبل صرعة جده بذهول أخرس، غلفه بتأمل غزير، لا يعرف من أي مدى هو المسحوب... لقد رأى جده محمولا على الزنود، عندما دخلوا به و ألقوه على فراشه، و هو مضرج بالدم، فوقف تجاهه يتأمله بعينين مشدوهتين، يطوف فيهما سؤال عجيب وجيع - معناه: - ما هذا الذي حصل؟!! و لقد لمحه جده و هو فوق فراشه صريع، و لكنه بجبروته و ايمانه منع رفيع، فاشتد نحو فتاه و ناداه، فانكب الولد صريعا يغمر قدميه، و ينزف دما من مقلتيه، و تعبا، و هلعا، و ارتعاشا من رئتيه!!! فلملمه الجبار الممزوق الضلع بضربة السيف، و الى صدره لفلفه بعشر قبل حمر - و هو يقول: - لا- تخف يا ابني العظيم! سيكون لي أن أنقل

خطواتى الى فوق، أيناديني جدك الأعلى اليه، و لا أرحل؟ [صفحه ۹۲] ان الجنان لنا يا ابنى النجيب، فابكنى قليلا، قليلا و لا تكثر... ثم فليضحك بك الحق الذى ينمو فيك، و بك سيتفسر... و عندئذ - فأنا ملفوف بقميصك، حى فى عينيك، بليغ فى لسانك و فى شفتيك... أيجوز أن تحزن على، و أنا فيك - هكذا - حى؟!! منذ أن أغمض الامام عينيه - و خشوع فريد يلون عينى على الصغير، بمسحوق لا هو من الحزن - و لا هو من التصبر، بل هو من التأمل الغائص فى واحات الذات - و هو الذى ستولد منه حقيقة التبصر، و حقيقة الرضوان. [صفحه ۹۳]

الامام الحسن

انه عميد البيت، و عماد الامامة. ان القاعة ذاتها، كان يتصدرها الامام على منذ عشرة أيام، يتصدرها الآن الامام الحسن... انها حزينة كما يبدو على الوجوه، و على الجو، و على الحيطان!!! و لكن الرهبة ذاتها التى كانت فى كل حين تسيطر على المكان، انما هى التى تستمر فى اشاعة ذاتها على المكان، فالامام على - و ان يكن قد غادر و تخطى الزمان - انما هو قيمة يتلبسها اسمه، و تتجوهر به حروف الحدثان... فلينله ابن‌ملجم، و ليتكايد عليه ابن‌سفيان... فانه يحول و لا- يزول - انما الجوهر هو فى ما هو العطر، لا فى ما هى طينة الأبدان، و الصدق و الحق هما جوهر الروح فى الانسان، و هما خلود فى مجتمع الانسان. و انعقدت - مع الصباح الباكر - جلسة بين الحسن و الحسين، للتداول فى الشؤون الملحة التى تعانى منها الأمة فى ظرفها العصيب. ان معاوية - كما قال الامام للحسين، اثر وصوله من المدينة الى الكوفة، و لقد سمعنا نحن القول: «انهم دائما بنو حرب، كأنهم الأسافين المدقوقة فى حجارات الأساس، [صفحه ۹۴] يخلخلون المداميك، و يزعزون البناء - انما معاوية بن حرب كان موضوع البحث بين الأخوين، و كان محصورا فى كيف يمكن اتقاء الرجل، بعد أن قويت شوكته و استفحل أمره؟! و لقد توقف البحث على خطين: اما معالجة الأمور فى الوقت الحاضر بالمهادنات - و اما الالتجاء الى الحرب، انطلاقا من «واقصة» حتى تدمر و الشام... ان القضاء على الرجل هو المريح الأمة كلها و الموحدها فى خطها الأصيل!!! لم يكن قد جال البحث فى مجمل مضامينه، حتى شق الباب الفتى على و دخل... و ما أن لمح أباه و عمه جالسين فى مكان جده، حتى درج متينا نحوهما، و من دون أى تردد تناول حضن عمه الحسن، و جلس فيه، كأنه حضن جده - بالذات - لم يزل حيا... خشع الرجلان للبادرة النقية، و تناولاه - اثناهما - بضمة معبرة عن شوق حميم: زرع الجد فى الحفيد، و أحيا الحفيد فى الجد!!! يا للجمال الناتج من ذاته كم انه رائع متسلسل العطر فى مسلسل فوح الزهر!!! أطلت الأم غزالة على الباب تفتش عن غلامها الشارد منها... فتبسم لها الثلاثة بسمة واحدة و بمعنى واحد، جعلتها مغتبطة - تقفل الباب و تذهب. أما الحديث فكان حوارا بين الأخوين، و كان صمتا مدهشا [صفحه ۹۵] على وجه الغلام، كأن عينيه آلة تسجيل أبلغ ما ينحفر فيها مدى الصوت فى ارتعاشاته و اعتلاجاته، لا فى تأوداته و اهتياجاته، كأن المعانى لا المبانى هى الولوج المقدس الى قرارات النفس - تدركها بالعين و لا تأخذها بالاذن - و لا- تنالها فى قرعات النداء، بل تستعذبها من رجعات الصدى. لقد كانت هكذا حال الفتى - و هو فى أربع من عمره - يختزن الظنون من تحت المتون، و يكتشف روعة الأبعاد من عيون المشرفين عليها، و يعرف لون العطش من العطاش يفتشون عن ماء!!!. أليست هكذا - مبنية - نفوس المشتاقين، و أرواح الملهمين، و عدسات عيون الرائين و المبصرين!!! و تبسط الحديث عن ماهية المهادنات - قال الامام الحسن، و الفتى فى حضنه يرافق مجال شفتيه: - لما كنا - بحاجة الى انشاء مهادنات توقف الحرب، و تحقن الدم، و تنجينا من هدر يطالنا فى جميع طاقاتنا الروحية و المادية على السواء... عشر سنوات - فقط - كانت كافية لنا فى مجال التحمل، ركز فيها جدنا الرسول هذه الأمة، و ضبط كل شؤونها فى الجمع و التوحيد، ثم فرض عليها هدنة - لماذا لا نقول: أبدية... تبنى فيها كل امكاناتها العظيمة فى ظل من السلم الواعى و البانى [صفحه ۹۶] أمجاد الأمم... لقد كانت الهدنة - تحت عينيه - هى المحققة راحة الأمة، و السائرة بها من تركيز الى تركيز، و من تسديد الى تشديد، و من مران الى ترسيخ، و من عدد فارغ القيمة، الى جعبة ملأى بالقيم، أى من قبائل بلا عد، يضج به الغزو و التشريد، الى وحدة تجمعها الرسالة فى الحق و التوحيد... ان الترسيخ - وحده -

كان الضامن الأكبر و الصريح، و كان الوقت يمشى و يطول، هو المرسخ المبعد الأمة عن الانفراط، و المشفيها من ماضيها المريض، و المنسيها شقاشقها التى كانت تنسبها الى البعران أكثر مما كانت تنسبها الى الانسان! قال الحسن ذلك و توقف به حزن أسود، امتدت عدوته الى وجه الحسين، فتململ فى مكانه و هو يقول: - هل آخذ عنك شقا من الحديث حتى ترتاح يا أخى الامام؟ و أجابه الحسن: - و هل أحد غيرك يكمل دورى يا حسين؟ و هذا الفتى المصغى الى، أليس له أيضا أن يصغى اليك؟ فيما كان الحسين فى بهاء استعداده لتكميل الحديث، كان [صفحه ۹۷] على الصغير يقفز من حجر الى حجر، يغمر عنق أبيه و يستقر: الحسين: لو أن زعماء القبائل - و قد قبلوا رسالة جدى و تمنطقوا بقوة هديه - دغموا الرسالة بالوصية، و مشوا قدما فى التسديد و الترسيخ و التشديد، لكانت الهدنة تلك بقيت كما قلت يا أخى، فاعلة فعلها الرشيد... لكان أبى السائس السديد، لكان - هو ذاته - الطويل العمر، و السائر بنا نحو محطات البهاء و الرخاء... لكانت الأمة - فعلا - تتمتع بهدنة مجيدة، يأخذ الدهر منها صوابية الترسيخ، و يتعلم منها التاريخ كيف تكون روعة التاريخ!!! و لكن الزعماء - من حيث لم يدروا، لنكد الحظ - مرغوا نفوسهم، و مرغونا بالفشل الطويل الأصفر!!! هكذا نزل الحزن و الأسى من بين سفتى الحسين، بعد أن انسابت دمعة حمراء من عينه، حطت على ثغر الفتى - فاحترقت بها شفتاه، و اتقدت بها عيناه، فغطى عينيه براحتيه الصغيرتين، و هو يخنق نشيجا تعبأ به صدره النحيل! بعد دقيقة من قوت مذهول، غمر الحسين ابنه الصغير، و أقعده وحده على المقعد و هو يقول له: - اجلس رجلا، و لا تخف يا ابنى - نحن لا [صفحه ۹۸] نريد أن نعلمك الفرح قبل أن ننشر أمامك مناديل الحزن... ساعتئذ تقدر أنت أن تعرى الحزن من مناديله و تتركه قبيحا أجرب!!! فتبسم الفتى و هو يقول بلهجته الذكية: - الحزن هو الأجرب... اما الحسين فانه استقام فى مقعده - بالقرب من ولده - منتظرا اكمال الحديث المطروح على بساط البحث - اما الامام الحسن فأكمل: - منذ أن تولى الحكم سيد الأئمة، و هو يعالج الناس بعزم مهدور بين حروب داخلية، و مهادنات جانبية... لا الحروب أدت فعلها المطلوب، و لا كان للمهادنات غير قيمة محدودة! ليس للحرب أن تسكت الا بعد أن تسكت الخصم! و ليس للهدنة أن تطيب الا اذا فرضها التعادل بين قوتين، لتكون حكما يفرض على الاثنين سلما بسلمين. القوة تفرض الحرب - أكانت على حق أم كانت على باطل! و الضعف فى أغلب الأحيان - يطلب الهدنة - و لو كان معه كل الحق. أما المقاومة فهى - بين المطلبين - لا حرب و لا هدنة، بل هى مهادنة ذكية، تتحايل على القوة، علها - مع الوقت - تضنيها و تأخذ عليها المبادرات... [صفحه ۹۹] - ذلك هو شأننا مع معاوية، منذ أن تحكمت برقابنا أدران الخطيئة، فحرمنا - أغبياء الزعامة فينا - من نعمة هدنة صحيحة فرضت لتنجينا من حروب التدمير، و لتقينا من مقاومات فيها من البؤس، و الجبن، و التحايل الكثير الكثير!!! لقد زرعوا معاوية فى الشام - منذ أربعين سنة زرعوه - فبعثرونا شظايا شظايا، و طرحونا أشلاء حروب باطلة، و مهادنات كاذبة، - و مقاومات فقيرة، فيها من الحيف و التشريد ما يعمى الأمة و يضنيها!!! اذا كان هذا هو تصوير حالنا مع معاوية، فما هو رأيك يا الحسين؟ هل لنا أن ننشط للحروب؟ أم نتلهى بالمهادنات؟ أم نكتفى بمقاومات نتعلل بها الى يوم حريز؟!! ما تفشت على وجه الحسين غلالات يأس، بل انه تصلب بعزم و قال: أرى التعادل موفورا بين قوتين: - و أراه معنا أكثر من تعادل - انه ترجيح: لقد أسكتنا معركة يوم الجمل، و كأننا أسكتنا معاوية... و أخرسنا جعجعة النهروان - و هذا معاوية آخر يسكت... و خضنا صفين - و لولا رفع المصاحف، اما كانت خرست صفين؟!! [صفحه ۱۰۰] الحسن: صحيح ذلك، و لكن قوة معاوية تستند الى مخزون أربعين سنة فى أرض الشام الغنية و المرتاحة، أما قوتنا فهى التى أنهكها زعماؤنا التقليديون على مدى أربعين سنة بالتمام! فجنينا هنا: الفقر و الضعف و الحرمان! و جنى هو الثروات الطائلة، يخضها سيوفا فى نحورنا، و معدات، و دروعا و رماحا... و يرشها شبعا على جنوده، و رشوات يشترى بها جياعا عندنا، يقوى بهم جيشه، و قلاعه و متاريسه!!! لقد كان رفع المصاحف خدعة يصوغ منها هدنة تريح جنوده ليوم حرب ثان، يقوى فيه، و نهزل نحن!!! أنا معك فى تحقيق الربح لنا يوم صفين. لو بقيت الحرب فى تصعيدها المؤمن... و لكن الأمة التعبانة - لا أنت و لا أنا - هى التى ضغطت على وقف الحصار، و قبلت بهدنة المصاحف، و لوت السيف و الرمح، و استكانت تطلب الظل!!! و الظل هارب منها منذ أن هربت عليا من الساحة الأولى، و هربت معاوية الى غوطة الشام! الحسين: أنا لا أقول عكس ما تقول يا أخى الامام - فقولك صدق

و نبعة من واقع - و لكنى متيم بأمة جدى، و يضنينى البؤس اذا لم يشبعها [صفحه ۱۰۱] عجين الرسالة... و عجين الرسالة بطولة فى الروح، و كنوز فى الأرض و فى السماء، و صدق فى العمل، و بركة فى الانتاج... ألا يمكن أن تغتنى الأمة بمثل هذه البركات، و تتمكن من ترقيق سيف و ترس و رمح؟!! الحسن: عوفيت يا أخى الحسين - ألسنا نحن من صلب جدنا العظيم، مزروعين فى الأرض حتى نلملم أسقام الأمة، و ننشط الروح فيها بالصدق و الحق و العزم؟ انها مهماتنا الكبيرة. و ها انى أقول لك: لن تموت الأمة تحت غمامة سوداء - صحيح أن معاوية يضنيها، و هو اليوم متين، و لكنه لن يبقى فى باطله متينا! سنصمد فى وجهه بالأساليب العديدة: بالحرب اذا توفرت لنا زنود الحرب... و بالمهادنات اذا تضافرت لها الاغراءات المتلائمة مع واقع الحال... و بالمقاومات الصحيحة و المتعددة الأشكال و الألوان، كلما لزم الأمر... ألسنا دائما أولياء أمة نبتكر لها شتى الأساليب فى دفع المكاره عنها، و تجميلها بالأخلاق و المثل؟! سيزول معاوية و ألف مثله، و نبقى نحن للأمة - فى خط الحراسة و الصيانة - نتداولها فى كل كبوة من كبواتها المتمادية، [صفحه ۱۰۲] و ستبقى هى فى هالات الخلود - لأنها أمة جدنا العظيم: صونها بالحق - و صونها بالعدل - و صونها بالرشد الكريم. لقد انتشى الحسين أو فلنقل بشكل آخر: قد تعزى بهذا الكلام الذى انتهت به الجلسة، فقام مادا يده الى فتاة، قائلا له: - أرأيت يا صغيرى العلى - كيف أن عمك الامام عرى الحزن أمامك من سراويله السوداء؟! الحزن - دائما - هو الجربان - و قانا الله من حزن يفتل معاوية خيطانه على مغازل الشيطان. و مشى الحسين مترنحا بحزن يوشيه صمت كئيب، و معه فتاه، فتح الباب و هو ينادى على غزالة، كى تأتى و تأخذ الصغير ليرتاح فى فراشه، و قد أنهك روحة تعب الروح. [صفحه ۱۰۳]

وقائع

- بعد ثلاثة أشهر على وجه التقريب، كان الأخصاء فى الكوفة يلتمون مودعين أهل البيت و قد عزموا على الرحيل نحو يثرب، بعد أن استلم معاوية الكوفة التى بايعته بالخلافة. - قبل سنة من هذا الوقت جرت بين على و معاوية مهادنة قبل بها الطرفان: لعلى العراق، و هو أميرالمؤمنين، و لمعاوية امارة الشام، و لكن أميرالمؤمنين هلك، و تم صلح بين الامام الحسن و معاوية، على أن تكون الخلافة لمعاوية على مدى حياته، و تعود - بعد مماته - الى الامام الحسن. - لقد أملى الحسن هذه الشروط على معاوية، و تم القبول بها بعد أن عجم الامام عود القبائل فى العراق، أكانوا مضريين، أم حميريين، أم كلبيين، أم قيسيين... لقد وجدهم جميعا فى محنة من خوف و جبن: يتشجعون فيعدون، و يرهبون فيحجمون... حتى الولاء فيهم كان مضغة لا يمتنه الوعى، أكثر مما يهيجه الحقد. و الحقد - وحده - لا يبنى شجاعا و لا يطيب سيفا، بل يكون - فى نظر الامام - دفعا الى انتحار! ثم ان الامام لم يكن مؤمنا بحرب تدفع نصف الأمة لمناجزة [صفحه ۱۰۴] نصفها الآخر، لتنقلب الساحات كلها الى مخندقات للمقابر!!! - من أجل سلامة الأمة و صيانتها قبل الحسن بصلح لن يسترسل معاوية بالتقيد بمضامينه - لأنه داهية خداع، و أسير حقد سفيانى على مطلق طالبى، و من أشد المتهالكين على خزن الدنيا فى عبه ذهبا و مجدا و سؤددا - ولكن الوضع الراهن جعل الحسن يقبل بصلح يجمع شتات الأمة و يلحم نصفها بنصفها الآخر، ليكون التنازل عن الحكم من أجل ازدهار الأمة و لحمتها، قدوة للحاكمين الوافدين مع أى جيل من أجيالها الطالعة تخلقهم الأمة من معدنها الأصيل... لقد كان التنازل و انشاء الصلح، من أجل سلامة الأمة، و من أجل احياء القدوة، لا من أجل معاوية بالتخصيص، و لا من أجل سلامة الحسن بالتعيين. - و خطت قافلة أهل البيت من الكوفة نحو يثرب، على المحطات ذاتها التى يغشاها كل المسافرين... منذ سنتين مشتها قافلة الحسين، و اليوم تعود القافلة بقيادة الامام الحسن الى المدينة، و معهم فتى صغير اسمه على الأصغر، و لكنه أصبح الآن يتقن فتل الجمل، و أصبح يتألف فى عينيه حزن رصين!! - و استقر الوفد كله فى يثرب، فى وحدة وسيعة القرار، و أنيقة المسرى، و معينة الأهداف - و كان الامام الحسن القطب [صفحه ۱۰۵] الملتم اليه أهل البيت فى كل شؤونهم المعيشية - الحياتية - الفكرية - الروحية، و كانت المدرسة التى أنشأها بمعاونة حبر الأمة عبدالله بن العباس، هى المنتدى الواسع الجامع كل المدينة حول امامهم الوحيد الموقد لهم شموع المحراب... - بعد ثمان أو تسع سنوات من انعقاد الصلح الأبيض، تسلل معاوية من الشام، تحت خافية غراب

اسحم - عبر واقصة و محطات كل العرب... ها هو - بعد منتصف الليل - يتلوى بين الأزقة فى يثرب - يقرع باب بيت الامام الحسن - تفتح له جعدة بنت الأشعث - زوجة الامام - يناولها كأسا مذهبة، فيها عسل مذوب، و فيها سم أشقر يعدها بفجر ملون و معطر... تبتسم هى له... يلتحق هو بسحمة الليل... و لكن نجمة صبح ذلك الليل اختنقت... لقد ازدردتها الجرعة!!! [صفحه ۱۰۷]

رجوع القافلة

و لكن القافلة التى أقلعت فى ساعة من ساعات الليل، قد تركت الكوفة، فى عملية كأنها نوع من نزوح، و مرت فى «واقصة» و خطب طويلا من الصحراء، ثم حطت فى مدينة يثرب. من هم الذين كانوا فيها؟ بحكم الطبع، انهم العائلة جمعاء: رجالا، و نساء، و أولادا، و أطفالا، و حراسا، و عتادا، و حاجيات، و ما اليها من مستلزمات. و لكنى لم أر أحدا من ركاب القافلة، الا الصغير عليا، لأن نفسى أصبحت مقطوبة بفتى بدأ يترنح فى بالى كأنه هو البيت بكل ما فيه: و هو القافلة و كأنها ما انشدت الا له، و كان الصلح الأبيض الذى مهد له جده الامام الأكبر، و أتم انجازه عمه الامام الثانى، انما هو الاطار الآخر: ظاهره الواقى لملمة أمة و صيانتها من انهدار الدم... و جوهره الخافى وقاية الامامة التى ستكون له فى ما بعد حتى تبقى فى حرزها الأنيق، تتعهد السهر على الأمة، و تمدها - من مناهل الرسالة - بكل ما يجعلها أمة مؤمنة حية تجتاز المعابر المدلهمة، و تنجو من مخاطر الانفراط. [صفحه ۱۰۸] لقد بدا لى أن هذا الفتى المعدود فى خط الامامة، حتى من قبل أن يولد، هو - فعلا - طاقة مميزة تشير اليها و فرة من الدلائل: ربما تكون فتحة عينيه و نوع المدى فيهما و هو طفل صغير، هى واحد من الأدلة التى تفرده عن الاطفال من عمره الذين ينظرون اليك و كأنهم لم يروك... ربما تكون خطواته الأولى التى مشاها فى صحن الدار، بيدين لا تتأرجحان، و بقدمين لا تصطكان - هى أيضا دليل يفرده عن بقية الأطفال من عمره، و الذين لا يمشون الا و أيديهم تفتش فى الهواء عما يتلقطون به حتى لا يسقطوا أرضا - و ربما يكون - و هو فى حضن أبيه يصغى اليه يتكلم، و عمره أقل من سنتين، و يبدو غارقا فى صمت و انذهال، كأنه يستوعب ما يسمع - دليل ثمين آخر، يفرده عن بقية أترابه الذين لا يسمعون كلاما منك حتى يغرقوك فى ثغثغات لا هوادة فيها. و لكن ذلك و ما شابهه، قد يحسب تغنيا يتلذذ به الأهل و هم يحدثون زوارهم عن أطفالهم الأحباء... الا أن شيئا من هذا كله لم يكن فى هذا الفتى أقل من ظاهرة ملفتة للنظر، تأخذها منه فى تسلسل تلقائى تلمحه كلما توضحت فيه الاشارات مع سياق العمر... أن هلعه - مثلا - أمام جده الامام و هو مضرج بدمه، قد صبغ وجهه بقرمز غريب لا يفرز مثله الا وريد آخر يتمكن من استفحال المصيبة من مكامنها الأليمة، و هو يتحسس فيها الخطر الجسيم! منذ أن غاب جده من تحت ناظريه اشتعل فى عينيه وجد [صفحه ۱۰۹] نحيل، راح يغطى فيه غضون الوجه و لا يمسحها الا بزهو مشلول! لا يحلو لى استباق الأحداث قبل الوصول اليها - وجها لوجه - و لكنى الآن ألمح بشى - على سبيل توضيح ما أقصد تبيانه - فأقول: من هذه الطفولة بالذات التى أصف بعض دلائلها فى امامنا الكريم زين‌العابدين، تضافرت عليه فى ما بعد، و هو فى نضج العمر، روافدها نقشا و حفرا، فاذا هو الساجد المبدع، و المصلى الرفيع الولوع، و الزاهد الملون بخشوعه الأمثل، و الفنان الكبير فى انتهاج الأدعية، و المكمل الأوحد نسيج انشاء منيع، ما تناول مثله نسيجا على قرطاس الا جده على فى نهج‌البلاغة. نعود الآن الى نولنا الذى نحوك عليه فنقول: و لو كان عمر على الصغير أربع سنين، عندما شاهد جده على المحفة الخرساء، فان الذى جذبه الى جده كان من نوع اللهيب، فسبحان الله اذا كان لنا أن نسأل: ما هو لون اللهيب؟ ان لون اللهيب عجيب غريب، يحفر ذاته فى السليقة من دون أن تدرى السليقة كيف انشوى فيها الحفر السكيب... من هنا كانت الدلائل التى و صفتها فيه، كأنها فريدة فى تكوينه النفسى الأصيل. لقد لمحتها هكذا - فى ملامحها عليه - لا من قراءة الحروف، بل من التلقط بالصدى المنبعث من وهج الحروف... أنا لم أقرأ حرفا واحدا يصفه عندما اعتصم جده بالصمت البليغ و لكنى رأيته بعينى الباطنية - بعد التفات الدهر [صفحه ۱۱۰] بطيات القرون - رأيته يمتص حزنا جليلا تلازم به كل السنين، أما التلازم هذا فكان فى النهج، و كان فى التعبير. سيكون لنا أن نرى الامام زين‌العابدين صورة طبق الأصل عن الامام أميرالمؤمنين: قولا و فكرا و نهجا. لكأن حروف نهج‌البلاغة هى التى ركب منها روائعه البيانية فى سجوده

الأمثل. تستوقفنى مليا كلمة التلازم، ففيها كثير من معانى الاحتواء الذى هو مجموعة الأهواء الفاعلة فى التكوين النفسى البانى شخصية الانسان. ان تضافر الصفات الجليلة، و تفاعلها فى عمق الذات، و توافرها فى الاحتكاك و الاندماج هى التى يحييها الشوق، و يوحدها التلازم، فاذا هى تسلسل متتابع الدفع و بليغ الأداء... أما الصفات فهى المكتسبة، و هى التى تعلق فى بطانات النفس، تنعشها و تنتعش بها فى عملية التلازم و الالتصاق. و بطانات النفس انما هى قماشة مخملية الزغب، تجذب اليها ما تكتسبه عن طريق الامتصاص، لتكون كالشعيرات، تتأجج بما تمتص، فتتعافى غزاراتها لتنمو و تورف بها ظلال الفكر و واحات الروح. ان الصفات الكريمة و المتشعبة الأضلاع، هى التى تتغازر فى تناسقها، و تتمادى فى التغازر حتى تشير أخيرا الى لون كل عبقرية تبرز فى مجتمع الانسان. أما زرع الصفات فى النفس، فالمتكفل بها هو المجتمع بالذات يزرعها فى الناس و هم فى بطون أمهاتهم أجنة. و يكون [صفحه ۱۱۱] الزرع أجنى و أوفى و أصدق، كلما عاد عمر المجتمع الواعى الى الوراء آلاف السنين... أليست هكذا تتفسر معانى الأصالة و العراقة فى مجتمعات الانسان؟ لطوية النفس آثار و أسرار، تبوح بها السمات فى الوجه و العين - من هنا كان التجاذب بين الامام على الكبير، و الامام على الصغير، مضفيا على الاثنين قابلية من وحدة المصدر، تلقط بها الطفل محمومة بذاتها من دون أى وسيط. و خط الامامة هو المصدر الموحد، لأنه من نوع التلازم و الالتزام - ان فيه البليغ من الايحاءات الفاعلة من لوحات الطوية التى هى خزان الاحتواء - تأخذ منه العين، و كل خلجة من خلجات النفس، صباغها الزاهى و مداها المميز. تلك هى المعجزة التى اجترحها النبى الكريم فى حفر الامامة و انزالها فى النفس طوقا و وشما، حتى تكون الامامة - بحد ذاتها - اطارا سنيا لاحتواء رسالة يخلد بها مجتمع الانسان - لقد أناط حراسة الرسالة و صيانتها بالامامة، بعد أن نزه هذه الامامة و وشاها بخزانات العلم و الادراك، و بعد أن جعلها تخصيصا، و ألزمها بكل أناقات الروح، و بعد أن عينها خطا منسولا - اماما من امام - فى سجل رسالى يضىء ذاته بذاته، لأنه موحد الدفة و موحد القرآن، و هكذا لا يمر قرن من السنين أو قرنان، الا و الأمة فى حد مكين، يجمعها الترسيخ و الاستقرار، و ينورها هدى الرسالة، [صفحه ۱۱۲] و يثبتها الحق الرفيع. فلتفعل التأثيرات النفسية فعلها المباشر على الامام الصغير، و ليمغنطها خط الامامة من ذاتها فى ذاتها، بالتناغم الحى، و ليكن ذلك فيه نتيجة ايحائية تجاوبية بنى بها منذ أن استمدت - من باعثها - و حيا فاعلا فى الرقعة النفسية المعهودة فى الامام على، فى تنقل منبثق عنه، الى صلب منه موصول به، و منوه عنه فى التدرج و التعيين... فالرسالة ما تركت من بالها - أبدا - تنسيق خطواتها فوق الدروب. لقد كان التنظيم المسبق من ضمن تعهدها فى ضبط أسماء الأولياء الذين سيكون عليهم فى الغد الآتى توجيه السفينة فوق أمواج العباب. تلك هى الامامة فى مرماها البعيد. انها احتياط الرسالة فى تنجيتها أمة من التخبط و التشويش، ما صانها منهما بعد وعى منظم، و هذا قول معاد و مكرر: لو أن الأمة تمكنت منها حقيقة الرؤيا يوم اجتماع السقيفة، لكان لها حتى اليوم حصاد ثمين... و انطوى الامام على فى دثار من كفن، و انصبغ وجه الامام الطفل بكآبة ملفوفة بفرح مكتوم، ثم استفاقت به اشراقة ملحوظة استجم بها فى حضن عمه الامام الحسن، كأن الخيط ما انقطع، و كأن التناوب الباقى هو الوصل المؤمم. و سارت القافلة من الكوفة الى يثرب، و هى تمضغ خذلانا محفوفا بخذلان! انها الأمة العريانة، رقعت ثوبها الممزق، [صفحه ۱۱۳] و استكانت فى حفر الظل!! لقد اشتروا لها صلحا أعور، درأوا به لحمها و عظمها و دمها: علها تسترد جأشها المهدور فى ذل الحفر!!! كل ذلك كان فى لون وجوه الراجعين، و لقد انعكس - هو ذاته - فى وجه الصغير الذائب فى قلب الحاشية... لقد كان الحديث كله تحليلا و تعليلا لواقع مقيد بتصرف لا مندوحة عنه... عسى الأمة - و لو بعد حين - هى المتمكنة من وعى يصحح لها وحدتها فى حقيقة الالتزام. ان القافلة الآن، تستقبلها عناصر الأنصار فى مدينة يثرب. [صفحه ۱۱۵]

يثرب

و يثرب؟ انها المدينة المنورة، لقد ولد فيها من أضاءها بشمس خلدتها بالأشعة. يا للولادات البهية، تفرك التراب و تعجنه باكسير النور، فاذا هو حياة يشع بالجمال حتى لا تنطفى شمسه... انها يثرب، أى شأن يكون لها - بأزقتها الفقيرة، و يبوتها المضروبة من لبن

الطين -! لو لم يولد من طينها نبى خفقت به شمس لا تغيب؟! الى يثرب هذه عادت قافلة الحسن و الحسين، و على الصغير، لأنها مهبط رؤوسهم، و مهبط رأس من نورها، و بنى فيها مسجدا من شمس، و ثوى فيها حتى تبقى حية بخلوده. و يثرب - حتى ولادة الرسالة - كانت أزقة متداعية، و بيوتا من طين، ستذيبها الشمس على مهل، و تطمرها سافيات الريح!!! و لكن الرسالة التى لملمتها الهجرة، و صاغت لها رقما حسابيا زاهيا فى صفحة التاريخ، هى التى جعلتها مدينة مرسخة الجذور، لا تقوى على محوها عاديات الزمان، و كفكفتها بعزم روحى مشتق من صلابة الانصار، عاشت به حمية الرسالة و شعت، لتبقى يثرب [صفحه ۱۱۶] منورة بالوهج السنى، من دون أن ينطفىء لها ذكر، حتى ولو ذابت حجارة و طينا من على صفحات الرمال. و راحت الدار المرصوصة بعضها الى بعض فى وحدة الحيطان، تنشق أبوابها لاستقبال الوافدين و المرحبين بعودة أهل البيت. بالأمس تركهم الصغير على، و قدماه فوق الأرض شحيحة الوطء و خفيفة الزيغان، أما اليوم فانه الراجع بعدو رشيق، لا يعدله الا توازن يصنفه بمجال لا دعابة فيه. لقد كان يعين - هو - مجلسه بين أبيه الحسين و عمه الامام، يصغى مليا، و اذا وجهت اليه كلمات أجاب عليها برصانة و احتشام. انها فترات - أظنها رسخته فى الاصغاء الوسيع - راحت تطل به على فهم رزين، انما يحتاجه ذوو العقول المتينة فى غوصهم الى أعماق الذات و لب القضايا، و تنبههم الى أى مجال تتمسح به شفافية الروح فى الانسان. و هكذا يدخل العلم الى آفاق الفكر، و تغتنى النفس من رواق المعرفة. انى على شبه يقين من أن الثمانى أو التسع سنين التى قضاها الفتى فى يثرب مع عمه الامام هى التى حفرته بأبجدية الحرف، و علمته قراءة الجمل و أناقة التعبير، و هى التى طيبت عليه الغوص فى أبعاد النفس، و حضرته للكشف عن أسرار الغياهب. و لقد أطلعه عمه الامام على كل رق كتب عليه جده أميرالمؤمنين كل جواهر نهج‌البلاغة، بخط الكوفى، و أبعاده [صفحه ۱۱۷] الرسالية، و تعاليمه المنظفة بالعدل، و الحق، و أطياب السلوك... لقد كان - بين يديه - كالعجينة فى راحة العجان: تقبل العجن بكل أشواق الطحين، و تسترسل اليه كما يسترسل النور من فتحات النوافذ. و طال الامام - كما رأيناه فى نبذة مرت علينا كما يمر السهم فى عين الرمد - و جيف الموت اثر جرعة من عسل مسموم، قدمه معاوية بواسطة جعدة بنت الأشعث، هدية للرجل الذى اشترى سلامة الأمة و خلصها من نهش الذئاب!!! و طال الفتى - بالمقابل - و جيف آخر، عندما تفسرت له الغاز الجريمة، و تكشفت أمام عينيه مناجم الكيد و الضغينة فى كبد الانسان! انها المرة الأولى يلتاع فيها لوعة مكشوفة الجوانب، يحدها عقله، و عينه، و حسه، و عمق ادراكه... و انها الاجفالة الأولى تنط به الى صدر أبيه يسأله كيف تكون الرزية!!! و لكن حزن أبيه و لوعته المجنونة، كشفا له عمق الهاوية المحفورة تحت أقدام الطالبيين!!! و انكفأ الفتى الى ذاته يتذكر... لقد فهم الآن ما معنى ابن‌ملجم، و فى يده دسة الخنجر!!! و أدرك عمق المأساة، و فظاعتها: فى كيفية اتقان مزج السم فى لعقة السكر!!! لقد مسه تأوه السؤال: [صفحه ۱۱۸] - هل هكذا يكون الانسان حبلا من حبال الشيطان؟!! و ذئبا بوجه انسان؟!! [صفحه ۱۱۹]

الحزن يلون الصور

ان لى الآن مركبة مشدودة من خيوط الزمان، لا تدفعنى الى الأمام ألف سنة، بل تحملنى الى الوراء أربعة عشر قرنا و هى تبللنى بحنين مزروع فى حزن النفس تنوء به معى محارم الكعبة و أطلال يثرب. كأنى أراها - مدينة يثرب - بعدسة عينى، تغرق فى أساها - كأنى أتنادى الى كل المشارف فيها، و لكنى لا أرى الا بعضا من مدارجها، من دون أم أتمكن من تعيين و جهاتها بالنسبة الى مشرق الشمس أو مغربها، كأن المكان ظل من زمان، لا حجارة من مقلع أو وجبة من طين. و هكذا حرت أزور غار حراء فى لحف كريم البزوغ فى مدينة مكة، تلتمع فى سقفه نجمة قطب، و ادخل بهوا مشرعا فى لحف من بيوت يثرب مقهور السقوف، لا ينهض فيه الا ضريح من ورد أبيض، هو مرقد الرسول فى مسالك المسجد!!! أما البقيع - فى العزلة الصامتة - فهو ردهات مسلوخة من أحزان الليالى الغائرة الأقمار فى أعماق اللحود!!! أنا لا أسأل القلم بين أنامل كفى كم من الوقت بقى يخط [صفحه ۱۲۰] على القرطاس فى رحلته الملتاعة و المشتاقة، و لكنى لمحت فى مدى غرقى، أننى صرفت معه وقتا كأنه يطول عشر سنين، و لكنه وقت غير ملحوم الثوانى، لأن

حزنا أخرس كان يشرد بى من مكان الى زمان، و من زمان الى مكان، و هو الذى استعذبت أن أنقع به روحى لقد علقت على كل ذلك: صحيح أن الحزن هو العقيم الأجرب، و لكن شأبيب المعاناة، هى التى تغسل النفس بالحزن و تجلو به خبيئة الجوهر. و تتابعت على المشاهدات: - منذ أن سكت قلب الامام الحسن، و اعصار من وجوم يقطب وجوه آل البيت، كأن الريح هى التى حفرت فوهة القبر فى البقيع، كأن صدر أمه فاطمة هو الموسوع فى وحدة الكفن!!! قبران فى ظل واحد، جمعتهما وحدة الظل بالظل فى عملية الضم!!! ما شحت زيارات الحسين لمثوى أمه و أخيه الامام - أمامه ابنه العلى الصغير، و خلفهما امرأة سمراء، يهزهزهم جميعا حزن سقيم!!! - بالقرب من محارم الكعبة فى لحف الجبل السابح فى غلالات من أثير ترى العين الخاشعة تحت أطياف الظل، شبحا نحيلا [صفحه ۱۲۱] يصلى أمام فوهة غار - انه الفتى على - الساجد الأول المطيل سجود الذكر و الشكر فى حراء ساجد فى عب كهف. مع الصبح المهل يعود الفتى الى جنب أبيه المصلى صلاة الامامة!!! - هنا فى يثرب - على بعد خطوات خافتات، و بين ظل و ظل ناطحين قبة المسجد - يغفو مقام تعلو به ذروات السحاب... انك تسمع همهمات الريح و هى تسبح العلى العظيم بلسان من صلى الله عليه و سلم!!! انه مثوى محمد، يزوره - مع الصبح و مع المساء - سيد من أسياد الجنة، موصولة به رسالة مفجورة من كوثر الحق، يربطها الوعد، و يزهيها النور، و يسمو بها نهود العنفوان!!! فلنصغ الى هزهزات يموج بها صدر الحسين: - نحن هنا، يا ابنى على - نتناوب السهر على بوابة الدار، حتى لا يتسلل لص من يمين، أو عاهر من يسار... اننا حراس العهود - هكذا غرسنا الوعد: سماكا بعد سماك - ألا ترى جدك عليا كيف انطوى خلف الحجاب! و سدده فى الفيء عم لك، ما استدعى حتى أجاب؟ و ها أنا - اليوم - لا [صفحه ۱۲۲] أخاف و لا أهاب!!! و ها أنت - من بعدى - مبنى لمجابهة الصعاب... انها الأمة - يا ابنى - نظنها بلا عمر، و لا الا لها العمر المديد: انها الجد فى الابن، و انها الابن فى الحفيد!!! انها الخط المتمادى فى شعاب الأمس، و انها البقاء المتنامى فوق الدروب!!! انها روح الله فى الانسان و سر الشمس يطويها الغروب... ثم تسترجعها و مضة الصبح كأنها ما غابت و لا تذوب! - جدك النبى هو العظيم، يا كل أبيك فى برزة الميراث، لقد جمع للأمة كل مآتيها للغد النامى - و لولاه لكانت فى مهابط الانهيار! و انهيار الأمم هو انخساف الى درجات الذل المبيد، الى فناء فى جحيم الأبالسة! - ان الرسالة هى المستردة زهوات النعيم، و هى - فى الموازاة النابضة - تلبى باعثها بنسبة ما تحققه هى - الأمة - من عز، و قوة، و مجد، هى كلها حقيقة وجود مجتمع الانسان!! و انها تقصفه الى خيبات الفشل، بنسبة ما تخف قابلية المجتمع فى الالتزام المنيع... و الرسالة و عى، و رصف، و لمة دستور... [صفحه ۱۲۳] أما نحن - الأئمة - فاننا الملزمون - نلون بوابات السهر بما يلزمها من وعى مقيم، و الا فان الأمة هى المفككة المهدورة، و ان النبى - نبينا - هو أيضا ذلك المهدور!!! حاشا للأمة أن تضيع ما اقتنصت على يد من لا تأتى الدهور بمثله عبر آلاف الحقب... - قدم جدك النبى للأمة شمول الدستور - فاذا هو وحدة فوق الأرض، و وحدة فى عالم النور. - و قدم لها جدك الامام نزاهة العدل، و قسطاس الحق، و نقاوة الضمير... فأى شىء ينقصها غير الغرف من نقاوة الوجدان؟!! - و قدم لها عمك الأمثل، أمثولة فى روعة التجرد و سلامة التوحيد، حتى تكون سالمة من القهر، و من الذل، و من التشريد، فأى شىء هو الأجدر لها من التفتيت و التبديد؟!! - و سانجيها أنا من ذل لم ينفعها فيه صلح كالثلج أبيض، و سأحاول أن أفديها بدمى حتى تتعلم أن ذل النفس وباء فى المجتمع، يضنيه [صفحه ۱۲۴] و يلاشيه، و أن الرفض يعود فيبنيه بعنفوان يتحرر به فيحييه! - ان العنفوان الذى هو قيمة رفض المكر و الهوان، هو الذى يبنى المجتمع من جديد و لو استمر الذل الى ألف ألف عام! - أما أنت يا ابنى فانى أترك لك تعيين اللون الذى تحتاجه الأمة من نور هديك: و أنت روح تذب عنها حزنا لا يزال يكبه على الأمة أفواج الزناديق!!! كأنها كانت تنهمر نبرات الحديث الشبيه بالوصية، من كوة مثقوبة فى سقف ليست تحته سواتر الجدران الا أنه سقف تغلفه الريح بعجاج من غبار - عندما أطلت على الفسحة المكشوفة، امرأة تخبىء فى عينيها دفقتين من عطف و حنان، و فى يدها كوب تقدمت به من خلف الفتى - كأنى سمعتها تقول: - لقد تأخرت يا ابنى عن تناول جرعتك من الدواء، و لن تتخلص من الأسهال اذا كنت هكذا تنسى أنك به مصاب!!! لقد أصيب على الأصغر، و عمره الآن مشرف على ثمانية [صفحه ۱۲۵] عشرة من السنين، باسهال عنيف اثر الصدمة التى نالته من وفاة عمه الامام. لقد كانت تنتابه الأعراض فيشفى

منها لفترة طويلة، ثم تعود فجأة و لا يتخلص منها الا بعد معاودته تجرع الدواء: انه تركيبة خاصة من سبع حشائش تنبتها أرض البادية، تغلى - ممزوجة - على نار، و تبرد، و يسقى المريض من نسغها عدة أيام فيشفى. و يقال ان هذا المرض من الاسهال يكون نوعا من الحصى فى المرارة أو فى مجارى المثانة، و لا ينجو المريض من عوارضه المؤلمة الا بعد مداومته استعمال الدواء هذا مدة عشرين يوما بانتظام، فيشفى المصاب، و تطول أو تقصر سلامته بالنسبة الى دقة الاعتناء بنظام المشرب و المأكل، بحمايتهما من التلوث ما أمكن. كان الحسين يلقى حديثه شذرات شذرات، و هو متربع فوق أريكة بيضاء، و قبالته فتاه على رابض على ركبتيه مطرق فى اصغاء السجود. سمه صوت أمه غزالة، فانفتل نحوها، ثم تناول الكوب فشربه جرعة واحدة، ثم مرغ وجهه بكفها و زرع عليها قبلة طويلة، أخذتها منه متهللة و سكبت روحها فى الكوب و انسحبت كأنها نوع من النسيم. أما الحسين فانه تلفلف ببعض و شاحاته، ثم تناول كتفى ابنه، هزه هزتين و هو يقول: - ثلاثة أشياء - تنام فى بالى - حان لك الآن أن تستوفيها منى و هى لك: [صفحه ۱۲۶] أولها السهر على عافيتك التى هى فرض عليك لتأدية مهماتك. فأنت للامامة الموصولة بالرسالة، من أجل أداء الفريضة الموكولة بك، فلا يجوز لك اهمال الفريضة. ان الأمة فى خط الامامة، هى اطار جدك فى الخلود. و ثانيها - فى خط التلازم و التكامل - هو ربط الارث بمقوماته المستمرة، لأن فى الانقطاع و قوعا فى فجوات تعرض الخط الامامى لفتاوى تتنابذ بها و فيها التآويل الصريحة و الصحيحة، لأن الامامة تعيين مسبق، شده المصدر بخيط النسل، لا من أجل نقاوة النسل، بل ابتغاء لتوحيد مصدره فى تسلسله الفكرى - الروحى الموصول الوجدان بالوجدان. ان الاتصال الوثيق هو الكفيل بعدم قطع الخط المناقبى المرتبط به جوهر الرسالة... ستكون الثقافة الممتنة - هكذا - بوحدة خيوطها، منال الأمة فى مسيراتها المجدية على دروب الحياة. لهذا أقول لك: مثلما أنت بالذات تكون من بعدى الامام الرابع باسم على الأصغر، هكذا سيكون منك بالذات الامام الخامس باسم محمد الباقر - ستكون فاطمة ابنة عمك الحسن - بالذات - أم الامام الباقر - فيها فى [صفحه ۱۲۷] غد يا ابنى، و اربط خيطك بحبل الأمة المخصب، و امش بالوعد قبل أن تنالنا - باصبعها - كف المكيدة - أن الله عزيز حكيم. أما ثالث الأشياء، فقد زالت أسباب الاحتياط من عدم كشفها عليك - لا بل ان اطلاعك عليه يوسع على نفسك جمالين أثيرين يسربلانك بحزن أنيق... ما كاد على يسمع كلام أبيه حتى رفع رأسه اليه. و فتح عينيه باستفهام وسيع و دهشة مستعجلة، فتناوله أبوه بذراعين مطمئنين و استأنف التعليق: - لقد عينت أنا لك الآن اسم زوجتك فاطمة ابنة عمك، لتكون أما لامام من صلبك - و كذلك عين جدك الرسول اسم زوجة جدك الامام أميرالمؤمنين، فاطمة الزهراء - ابنته و من صلبه، لتكون أما لامامين هما: عمك الحسن، و أبوك الحسين، أما جدك الامام على، فانه عين اسم أمك... و لقد ظننتها أنت غزالة، و الحقيقة أنها جارية و أم ولد - أنمتك بالرضاع، و أخذت دور أمك بالعطف الكبير و الحدب الفريد، لأن أمك ماتت بحمى النفاس، و لم تلمحك الا بعين سكرى بنشوة الموت... ان اسمها شهزنان بنت يزدجرد بن [صفحه ۱۲۸] أنوشروان... لو تدرى كم كانت عظيمة ابنة الخيرتين: الفارسية و العربية، و كم كانت جميلة و بهية زوجة أبيك الحسين!!! أرأيت كيف يكون الحزن رضيا عندما لا- يكون أسود أجرب؟!! و الحقيقة أن حزن الرجلين كان الآن قويا شديدا، و لكنه كان عزيزا رخيا، جعل الأب يطرق عليه، و جعل الابن يبتسم به، و هو ينهض آخذا بيد أبيه، يكفكفها بالدمع و القبل، ثم يتأوه: - لقد عاشت أمى شاهزنان من جديد - فى عينى أمى الثانية بجمال عزيز الأخذ و جليل البهاء!!! ألا تسمح لى يا أبى أن أعجل الى صدر أمى النقية، فأضمها الى شعاب صدرى، و أحررها من اسم جارية، و أزوجها - كما يقتضى منطق الحق - من سيد تزيد أناقته امرأة اسميتها أنت غزالة؟!!! فى تلك الليلة - و لست أدرى لماذا توفرت لى فيها غزارة المشاهدات، على الرغم من شعورى بأنها كانت سوداء شعثاء - قمت بزيارة صديقى أسعد الهجرى، فهو أعز من هفا اليه قلبى فى حاشية أهل البيت. و أصدق من سهر على أبواب الحسين، و أكتمهم، و أنبههم، و أذكاهم فى أنماط الحراسة. حسبته - لما اقتربت من بوابة المدخل - سيفا مخبوءا فى غمده و محفورا على [صفحه ۱۲۹] خشبة الباب، و لما دنوت أكثر، تبينته مسلولا يخطف عتمة الليل - قلت له: - كيف تموه ذاتك فى غمد الحسام، و أنت انمزاق من قرابه؟ و تبسم و تبسمت، ثم انحنى بى الى لطوة مهجورة و قال: - أتعرف أن الوليد بن عتبة، ابن واحد سفيانى من بنى حرب، الحاكم سعيدا مدينة

يثرب – هو الخارق – لا أنا – عتمة الليل؟ لقد جاء ينعى الينا وفاة معاوية و يربطنا بمزيد الأسى على رجل مات و لا تزال تسيل من أصابعه قطرات السم. و لقد جاء أيضا يشترى سيدنا الحسين، و يغريه بالعافية اذا بايع بالخلافة ابن معاوية يزيد الفهود و قيس القرود. سيشهد نصف الليل انسلالنا جميعا من المدينة الى محارم الكعبة، حتى نتدبر من هناك شؤون الغد!!! أما جعدة الشعثاء – مصدقة الوعد – و خائنة العهد، فانك طلبت منى فى الأمس عنها خبرا... فاعلم يا صديقى أن الجو كله هنا [صفحه ۱۳۰] قد أهمل عنها الخبر. لقد نزحت و لم يعرف الى أى جحيم قد ارتحلت! فى هذه الأثناء فتح الباب و خرج الحاكم فودعت صديقى الذى انعطف الى الداخل، و أقفل دونى الباب... و لكنى انزلقت خلف الحاكم من بنى حرب و هو من المنسلين أبدا فى عتمة الليل، و قد أصبح فى طوق من عشرة رجال كانوا متخبئين خلف الزوايا من الزقاق المعتم – انهم الحراس أن دعت ملمة... و لكنى اقتربت و تصديت، بعد أن تكفكفت بأعراض الجنون: فاحتوانى القوم، و سيوفهم قد اهتزت فى قربها – و ما تهيبت بل تقدمت أسأل، و دار بينى و بينهم هذا الحوار: قلت – أنا واحد من نزار... منذ وقت طويل و أنا أبحث عن امرأة اسمها جعدة بنت الأشعث... لقد كانت فى حرم الحسن... و لكنه مات... أما هى فانطوى عنها الخبر... فهل أحد منكم يعلم كيف ذابت بنت الأشعث؟!! قالوا – هلا سألت عنها بنى الحسن؟ قلت – و لكنها تبخرت من أجواء كل بنى الحسن! قالوا – و أين تظنها اختفت؟ قلت – ألا تظنون أنها فى قصر من قصور يزيد [صفحه ۱۳۱] المطلية بالعندم؟! قالوا – و لماذا عند يزيد؟ و فى قصر من قصوره المطلية بالعندم؟ قلت – لأنه وعدها بالزواج منه، اذا تمكنت من انعاش نفس زوجها الحسن بلعقة من عسل أبيه معاوية... قالوا – و هل فعلت؟ قلت – بحكم الطبع قد فعلت أتكون قليلة وطأة الاغراء؟!!! قالوا – و هل يتزوج خليفة المسلمين من عاهرة؟ قلت – أيكون يزيد خليفة المسلمين؟ قالوا – بحكم الطبع انه خليفة المسلمين أتكون قليلة وطأة المبايعة؟!! قلت – و هل يكون يزيد الخليع أقل منها عهرا؟!! ما انتهيت أمام هؤلاء الأبطال الأشاوس الى مثل هذا القول الأبجر، حتى أطبقوا على بنعالهم... و لكنى تسللت من بين النعال، و عذت بعتمة الليل، و نجوت... بعد نصف الليل بقليل، فتحت أبواب دائرة الحسين، [صفحه ۱۳۲] و خرجت هوادج النساء و الأطفال، و عدد ضامر من الخيول و الجمال – و تناولوا الخط من المدينة نحو مكة، بعد خمسة أيام تم الوصول. أما أنا فانى قد اندسست خلف صديقى أسعد الذى تعود أن يسبق مسير القافلة بساعة من وقت، على ظهر برذونه الأسود... و لكنه كان يمشى على قدميه أكثر مما كان على ظهر برذونه يركب، و هكذا علمنى أيضا أن أخفف عن البرذون الطيب مشقات الطريق. بين الفينة و الفينة كان الهجرى يمتعنى ببعض الطرف من حديثه الظريف، و هكذا كنا نقطع الطريق فى الليل على خفق بعض النسيمات التى فيها شىء من نعومة الصبا... قال – هل تدرى كم اماما تحوى قافلة هذا الليل؟ قلت – الامام الحسين، و ابنه الامام الآخر عليا الأصغر... قال – و لماذا لا تذكر اسم الثالث يا صديقى؟ اسم أبيه على الأصغر، و اسم أمه فاطمة بنت الحسن، و اسم جده الامام الحسين... ألا تستهويك رقصة الاسم: محمد الباقر؟!! ما سمعت ذلك حتى تذكرت قافلة الحسين – منذ ما يقارب العشرين سنة، لما توجهت من المدينة الى الكوفة... فقلت لصديقى الهجرى، و فى عينى غبار الذكرى: [صفحه ۱۳۳] – سقى الله أرض العراق بدفق اثر دفق من نهر الفرات... لقد ذكرتنى يا صديقى بدار الامامة فى الكوفة... لقد ضمت يومذاك – دفعة واحدة – أربعة أئمة: الأمامين العليين – الكبير و الصغير، و الامامين الحسنين... و انقبض وجه أسعد، و بقى و اجما يسرى، فوجمت مثله و سريت. بعد نصف ساعة من سرى صامت، توقف رفيقى يمسح عينيه بكفيه – لقد عكرهما دمع ملون – و توجه نحوى كأنه يسدد جوابا على قولى السابق: – لو لا بغاء «جعدة» لما كانت تشوهت روعة الخط!!! فانتفضت سريعا و أنا أعلق على القول: – ليست جعدة البغى الأول، يا صاحبى المحزون! أن السقيفة كلها كانت البيئة الأولى فى تنتين الصدور بقيح الفجور!!! اما العالق على حيطان السدود – منذ عهد عمر الى عهد يزيد – فهو تكرار المكرر فى انتاج سلسلة العهر من بغاء العاهرين!!! ان الطهر الذى يداس – يمتن أقدام الفاجرين!!! و ان العدل الذى يسمم و يرجم، يقوى العزم فى زنود الكافرين!!! يا تعس أمة [صفحه ۱۳۴] تقتل الطفل فى بطن أمه اذ توجس أنه سيولد عليا عظيما!!! ما سمح الهجرى هذا التأوه حتى سجد فى مكانه و تفجر بالبكاء! اما القافلة، فانها – اذ وصلت الى مكان السجود – أناخت بالمكان – و راحت ترفع الخيام و تمد البسط، لترتاح من عناء الليل! ما عدت أجسر أن

أترك محارم الكعبة فى مكة و أعود: لا الى أزقة يثرب، و لا الى مدارج الكوفة، و لا الى مفاسح تدمر، و لا الى غوطة الشام،... خوفا من أن يرانى أحد من أزلام يزيد المبثوثين فى كل مكان، فيجهز على بعركى تحت النعال... لقد و بلتنى اللعنة اذ ذكرت بشفتى اسم تلك الشقية الرقطاء... ثم انى مزجوج فى حاشية ليس لها صك فى العيش، لا فوق الأرض، و لا خلف أية قبة طالبية محفورة فى الجنان، فالنعيم حصر بأبناء القصور المدلهة بدفقات الخمور، و ان للمجون - وحده - جواز المرور من رخاء الى حبور!!! اما الأمة كلها فلتطمر من جديد، و لتكتب ارثا لخلافة نبوية ينقلها معاوية لابنه يزيد!!! ليست هذه الصورة البيانية من تلاعبات الخيال، بل انها مجاز الى واقع حياتى تعانى ثقله الأمة، من مرتفعات البصرة حتى [صفحه ۱۳۵] منفسحات الحجاز، حتى السواحل كلها من أرض الشام... ليس فوق الأرض - بعد مقتل الحسن، و انفتاق عين ابن أبى‌سفيان - الا مبايعات تمشى بنعال فوق الرقاب ليس أمرها مكتوما، بل معلن مسنون: - سجل مكرها - بيعتك ليزيد، و الا فعنقك المدوسة!!! و مكة المكرمة!!! بيض الله لها الوجه الكريم!!! و انها لا تزال تحافظ على ارثها الحضارى العريق، فى محارمها حول الكعبة... انها الكعبة المكرمة، و هى حتى اليوم أوسع محجة لملايين الأتقياء المؤمنين، يحجون اليها و يتبركون. لقد وسعها النبى الكريم، اذ رفع فوق مداميكها الحجر الأسود، و بهره بأنوار العلى، و حزم الكعبة كلها بمجال الضوء، و جعلها قبة و حرما... هنا - راحت تصان كرامات الناس المحترمين فيها، و لا ينالهم أى أذى ما بقوا فيها المحترمين. لقد التجأ الى الكعبة ابن الزبير، حتى ينجو من مضايقات ابن معاوية، و التجأ اليوم كذلك السيد الحسين، حتى يصون - موقتا - عنقه من نطع يزيد... و لكن... الى متى يبقى اللجوء الى المحارم المنزهة، و الى متى تبقى ملجومة عنها حجارات المنجنيق؟ [صفحه ۱۳۶] و انعقدت فى المساء جلسة (أعلنت فيها القرارات). لقد كان صديقى الهجرى يؤمن لى دائما مقعدا صغيرا فى الزاوية الصامتة من القاعة السرية ذات البحوث التقريرية فى شؤون الجماعة، لأن الحسين كان يثق بى، و كان يأبى الا أن يشعرنى بانى خيط من قمصان أهل البيت، لا لشىء الا لأنى موال قديم للرسالة الفخمة المنبثقة من عب النبى العظيم، و قد خيمت عليها ظلال على، و هو العظيم الآخر الذى عشقت فيه شبكة المكوك. ما أن دخلت القاعة حتى احتوتنى بكل اظلالها: كان فى الصدر ربوض الحسين، و الى يمينه على الأصغر و قد أصبح تقريبا فى الثالثة و العشرين، و ما بينهما جالس - مستكينا - محمد الباقر، بوجهه البهى و شعره الأجعد، و هو بنهدة الأربع سنين - انه عاقل يصغى... لقد أحيى لقطة لا تزال عالقة فى بالى عن أبيه على الأصغر، و هو فى ذات العمر فى قصر الامارة فى الكوفة - لقد كان على الأصغر - و قتذاك - جالسا بذات الوضع يصغى لحديث دائر ما بين أبيه الحسين و جده الامام على - و كان معهم أيضا الامام الحسن... قلت فى نفسى: هل يكون التصرف فى مثل هذا التطابق فى نشأة الأئمة؟ و هكذا انعزلت الى مقعدى الصغير فى الزاوية و أنا أتأمل... أما أخو الحسين، محمد بن الحنفية، فهو فى مكة منذ يومين أو ثلاثة أيام... على طاولة محبوكة من قصب غزار فارسى، رزم كبيرة من ملفات ورق خشن، مربوطة بخيطان من نبات الليف الأسمر... على الباب واقف أسعد [صفحه ۱۳۷] الهجرى... ماثلة مغروز فيها ثلاث شمعات تضىء المكان... رهبة خاشعة تربط السقف بالحيطان... قال الامام الحسين: - نحن فى مكة منذ ما يقارب السنة... أظنها انتهت عمرتنا الى البيت الحرام. بعد ساعتين على الأكثر نركب الخط و نمضى - لا الى المدينة و لا الى اليمن، بل الى الكوفة، حيث تلتف عظام أبى على بسنا الحق... لقد انسللنا تحت جنح الليل من تحت عينى الوليد بن عتبة، فعتب علينا الرجل لأننا ما و دعناه - و سننسل الليلة من بين يدى عمرو بن العاص قبل أن يفتح علينا باب الصباح بالمبايعات. انها بين أيادينا المبايعات: ألوفا ألوفا من الكوفة، و ألوفا ألوفا من البصرة، و ألوفا ألوفا لا تزال نائمة هناك لم تترك بعد أرض اليمن و لا مفازات الحجاز... سنحملها معنا حزما حزما فى هذه الملفات، لا لنطالب بها مساكين الناس هنا فى الحجاز، أو مساكينها هناك فى العراق، بل لنحفظها و نجعلها سياجا اذا علينا تجنت أحاديث الفتنة!!! فالأمة تطلبنا بلسانها المحتاج الينا، و بشوقها، و بكل حنينها المجروح!!! فاما يذوب الخوف و تنجلى [صفحه ۱۳۸] البطولات - عندئذ - فنحن لها فى حقها المشروع، و نحن نحن استنتها البيضاء... و اما يسد عليها الجور و التعدى أبواب العزم، فتنام فى سراويل القهر، و تتركنا فى الساحات نلملم لها - وحدنا - خيطان المجد من دمنا الرافض قبول الذل، و الراضى بطعم الاستشهاد!!! أظن جدنا النبى هو الزارع فينا حقيقة العزم و شرف البطولات!!! و

أظن الأمـة سـتجدنا فى طرف الميـدان حماتها المطيبين تحت السـرادق الأكبر!!! اننا لها - فى مجالها الأوسع - فهى سـرادق المجـد، و سرادق الخلـود!!! هـل لأحـد منكم بعض نصيحة؟ تلملم قليلا- ابن الحنفيـة... ثم قـال: - أخـاف أن أقـول: ان أهـل البهتـان هم أسياد الميـدان... و لا- أزال أقول: تريث بعـد... و اذا ضاقت عليك محارم الكعبـة، فقـد يكون اليمن أضـمن و أنجى... و لعلها فى غـد تتغير المعادلاـت... أنا لا أرى سـليمان بن صـرد و من معه من رؤساء أخماس القبائل فى العراق، أشـجع و أمتن فى قيس بن سـعد الـذى لم يتمكن فى الأمس من مساندة أخينا [صفحه ۱۳۹] الحسن... ليس فى أقوام العراق ثبات عزوم يساوى الانتصار!!! و بحزم أجاب الامام: - كـل القبائل من ديـدن واحـد - فأى فرق بين ابن صـرد و ابن قيس؟ أليسوا جميعا شـيوخ قبائل، و رياح مبايعات؟! لعلنا فى المحاولة التى تتهيأ لنا الآن - مربوطة بالحاحاتها القوية - نتمكن من تغيير المعادلات، و نفهم الأمة التى خيبتها، منذ ثلاثين سـنة، المبايعات، أنها لن تجد سويتها الا ببطولة تنجيها من المماحكات الأثيمة!!! و الا، فان فى ضـعف عزمها ما يقوى عزمنا على مضاعفة الجهاد!!! ألا تبقى الشـهادة مهمـازا طويـل العمر، يحرك الأجيـال للرجوع الى البطولاـت المتلقطـة بأوتار النجاة، و البقاء، و الخلود؟! أنا لست اليوم عازما على أن أضـيع فرصـة متاحـة قد لا أجدها اذا غيرت اتجاهى الى اليمن... انه دورى فى الامامة، و انه لونى فى تقرير المصـير... اما على الصـغير الـذى لم يغير مجرى سـجوده أمـام أبيه عنـدما يتكلم، فـانه لبى أبـاه الامام و أجاب: - انى مأخوذ بك يا أبى الامام - و ان لم تنتصـر بالقوم غذا فانك المنتصـر أبدا بالعزم [صـفحه ۱۴۰] المنيع!!! فأنا لك حتى قيام الساعـة فى الباحـة المتربع فى صـدرها جـدى الامـام... و التفت الى الامام الحسـين، كأنه يحرك فى نبرة من النبرات... فخشـعت و أنا أتلملم: - و ان هلعت من المصـير، فانى واجد أخاك و ابن أبيك فى حزن غير رحيم... و لكنى... و ان يمضـنى ألم رهيب... غير خائف عليك من اندحار... ان الثوانى لديك، انما هى من لون ساعات أبيك... سـيبقى الى جانبك سـليمان بن صـرد لمعة من سـيف ما امتشـقه بعد شيخ قبيلة، قد يخذله جبن القوم، و لكنه سـيبقى نبرة منسولـة من عزم امـام اسـمه على بن أبىطالب، يرى الحق أطول من أعمار الـدهر. بعـد ساعتين كانت القافلـة متجهة لتحط فى أرض كربلاء. كنت لا أزال شـبه مسـحور فى مقعـدى الصـغير، عنـدما فتحت عينى على ضوء شـمعة واحـدة بقيت تتنهد فى ذبالتها القصـيرة. لقـد ذابت من الماثلـة رفيقتاها الاثنتان. تفقـدت المكان و علمت أن القوم قـد انسـحبوا و أخـذوا عن الطاولة الملفات المحزومـة بخيطانهـا و رحلـوا، من دون أن ينتبهوا الى المطوى فى الروايـة كـأنه دمعـة من [صـفحه ۱۴۱] حـبر علقت بين مشـفرى قل الغزار... و لكنى أدركت - توا - انهم قصـدوا - فقـط - أن يجنبونى رحلـة فى رفقـة ستشـتد فيهـا وطأة المآسـى، و تتكاثف فيها ألوان الحزن الـذى لا- يتمرس بمثله الا- نوع فريـد من الأبطـال المتصـلبين بالاباء الفـذ الـذى تصاغ منه - فى الأمم - روعات المكارم. ما أن أدركت ذلك حتى هببت الملم أرجاه نفسـى، و فتحت الباب و انطلقت و أنا أهمهم: - لن أتركهم وحدهم، من دون أن أمتزج نسـمة بأعصارهم المقلع، من دون أن أشـرب نقطة من حبرهم الأحمر، من دون أن أنبث نبرة فى حزنهم المجيد، أو خفقة فى مداهم الأكرم، أو - على الأقل - شاهدا لا تكذب به رحلة التسـجيل!!! الا فليصمت التاريخ اذا يقصد أن يتغابى، فالقوم ما ارتحلوا و هم لا يدرون الى أين يرحلون! منـذ الزمن الأـول و هم يـدركون أن خطواتهم فوق الـدروب هى الموزونـة! لقـد وزنها لهم عظيم منهم، جهزهم بالوعى المحيط، يتمكنون به من مـد الجسور فوق المهاوى، من لون عمق المهاوى، و من لون مـداها، حتى اذا وقعت الأمـة فى المزالق، يكون لها - بهم - متدبر يحفظها من حين [صـفحه ۱۴۲] الى حين يتعدل فيه الانخساف! سـيكون المدى طويلا أمام الخط الامامى، طويلا و ملونا بأساليب الابتـداع... ان أصالـة الفكر و الروح - وحـدها - هى المبدعـة فى الرصـد و التلوين، و ان الاهتمام بالأمة - وحدها - هو تركيز الصـيانات فى مجتمع الانسان... و من لا يهتم بمجتمع الأمة يخسـر حقيقته فى عالم الانسان. كيف لا يكون الحسين مدركا على أى مفرق من المفارق يلوى ركبتيه، و قـد سـمعناه - منـذ لحظات - يشـرح أمام أخيه و أمام سلسـلة الأئمة الذين سـيتناوبون السـير من بعـده على كـل الخطوط... ألم يقـل لهم و لنا بأن لكل امام لونا من سـياسة يمهر بها عهـده، تكون من صـنف المناسـبات، و من نتائج ضغطها فى الأحداث؟ ألم يذكر لنا بأى شـكل تصرف أبوه فى تصبره على المكاره و الملمات؟! فكان العدل، و الحق، و نظافة الكف، من معادلاته الأنيقات؟! و كيف أن أخاه الحسن ابتدع الصلح الأبيض حتى يلحم الأمة و ينجيها من اراقة الدماء... و ها هو الحسين ذاته

الآن، يترك حرما أعلى قبه جده النبى، و ختم مداميكها بالحجر الأسود الهابط من حضن الضياء. الى أين هو ذاهب هذا الامام الحسين؟ لم يقبل الى اليمن هروبا و انكفاء، أو التماسا رخيصا لنجاة!!! بل الى الساحة البكر اندفاقا!!! يقرعها بزنده و صدره، و رأسه، محوا لذل، و تعزيرا [صفحه ۱۴۳] لاباء، و تثبيتا لرفض تأخذه الأمة عنه مثالا حيا تعيد به مجالاتها الأبية فى ظل العنفوان. ليس لأية أمة من أمم الأرض رجاء و بقاء، الا فى الظل العفيف المدبج بالوعى و حقيقة الاباء! ان درجات الوعى - وحدها - هى سلم المراقى فى مدارج الانسان، و ان اباء النفس - وحده - هو الصاعد به لتحقيق نجاواه، اما الحسين فهو ذلك النازل فى فسيفساء ذاته، لأنه تمثيل مطلق الدور لامامة مفروعة من صدر جده محمد، ولى الرسالة، و ولى التنزيل، و ولى الجمع المطلق، و هكذا فانه الآن الولى الأوحد المسؤول عن توجيه أمة و احاطتها بلون من ألوان الصراط. هنالك رجل خليع، اسمه يزيد، يغتصب الخلافة بالتزوير، و يثبت حكمه بالفتك و الترهيب، و يهدد الأمة بالضياع و الفساد و التشريد، و ذلك تحت سمع الأمة و بصرها! اما التصدى له بالسيف و الرمح و الترس، فان وقوع الأمة فى الضعف و الهوان، يبعد عنها الآن هذا المنال؛ و لكن ترك الأمور منساقة فى مجرياتها، معناه التمادى فى التردى، و اغراق الأمة فى انخساقاتها، و نهب امكاناتها فى التحقيق... اما الامامة، و هى - فى الأصل و مجرد الواقع - فى محل الاشتراع، و فى مركز [صفحه ۱۴۴] الحكم، و التوجيه، و الاحاطة، و الدراية، فانها المقصودة الوحيدة - ليس فقط بالتذليل، و التعقيم، و الاطاحة - بل بالحزن و الافناء، مهما اقتضى فن الابادة. ان السكوت - وحده - معناه الرضوخ، و ان الهروب - وحده - الى اليمن، أو الى أى مكان، هو تشديد الملاحقات، و ليس للسكوت و لا للهروب الا معنى الانحذاف من الساحة الفاعلة، و الانشلال من دورة الحياة، أما الأمة، فانها تكون - و الحالة هذه - شاهدة وحدها على ذل المسؤول و عجزه عن اثبات الذات. لهذا - بتعليل و تأكيد من المنطق المصيب - توجه الحسين الى ساحات الصراع، ليس على صدره درع، و ليس فى يمينه حسام، بل فى صدره زرد الدرع، و فى زنده موجات الحسام!!! توجه يعلم الأمة فى الساحة البكر: أن الحسام - ان لم يطيبه الوعى بهزيز العنفوان - يقصفه الجهل بصدأ الهوان!!! توجه الى الكوفة، و فى باله افتراضان متلازمان، متساندان، متواصلان بروعة الرهان... و ابتدأ الرهان: - غير الطريق الذى سلكه أبى من المدينة الى الكوفة لن أسلك، ان الكوفة قاعدة امارة أبى، و امارة أبى هى امارتى الموصولة به وصلة المكان بالمكان، و وصلة الزمان بالزمان، و هى التى ربطت الأمة بالوعد، و الوعد بكل مآتى الدهور!!! لأن الوعد النازل من سحب [صفحه ۱۴۵] الحق، هو ضمير النبى المنور بالخيال الصافى، و المركز بالمقصد الحى، و المسدد بالعقل الملم بآفاق الوجود. لقد أصبحت الأمة مربوطة به و هى تحقق ذاتها فوق الأرض و تحت السماء. - مقاطع مقاطع مفاصل الدروب! و انها دروب الأمة، تقطعها عبر الفيافى و البوادى و الفجاج، وصولا الى و احاتها الخضر! و لن تقحل و احاتها، حتى و لو سدت عليها القنوات! لأن من يسد مجارى الرى مجرم أثيم، و لن تبقى السدود رهينة كفه، ستحطمه و هو ظان انه قابض على مغالقها، لتطمره فى حفر العطش! - لا بأس بها محطات المعابر - فلتكن طويلة بمشقاتها المشوية بالحريق، طالما أنها تفرز أوشحة يتندى بها جبين المجد!!! ستكون خطواتى عريضة فوق الدروب، حتى تسمعها الأمة و تعرف أنى آت ألملهما من لوثات العثار!!! فاذا سمعت و أدركها وعى مجنح، فانى لها فى صدر الشعار، أنسجها صفوفا مجدولة، و أقذفها نارا تحرق أشواك الهشيم! و لن يطول وقوفها تحت الهجير، لأن من يتنزى على حرماتها و يلوث ماءها الفرات، ستخطفه [صفحه ۱۴۶] مهابة الجدل تتهلل به صفوف الأمة فى قوة لا تقهر، لأن الوعى يزينها و يرزمها، و لأن العنفوان - أجللها به - سيرفعها فوق الستائر، و هو يدك عهر الفاجرين. و اذا لم تسمعنى، لوقر لا يزال يسد فوهات مسمعها، فانى أكمل وحدى خطوات السير، و أهدر دمى فى انقاذ دمها من الانهدار، حتى ترانى بعينها الأنيقة، و تتذكرنى فى حنين القدوة: بانى رفضت الذل من عروقى، و نجوت من حفر الهوان، و بقيت لها فى مشارف الميدان أناديها لتستردنى اليها فى يوم وعيها الآتى، و لا بد لها من اليوم المنور، لأنها أمة جدى لأنها أمة جدى. تلك هى مصوغة الحسين - و هكذا كان لى أن أشاهد بقية الشمعة الثالثة فى الماثلة المثلثة الشمعات، تمتص آخر نقطة فى ذبالتها، و تعانق عتمة المكان و تهمد. وجدتنى فى عراء الليل... خببا خببا سمعت الوطء فى صداه الزاحف نحو «واقصة» عبر «التنعيم»، «و الصفاح» و «وادى [صفحه ۱۴۷] العفين»... لقد أدركت القوم فى سرى الليل... انهم فى مخابئهم المكشوفة

تحت النجوم... لقد رافقتهم و أنا أمشى على قدمين خرساوين، كأنهما بسكون الليل منتعلتان. ما هدأت، و لا تكلمت، بل انغللت، و تأملت، و اعتصمت بالصمت الشفيف... تحت بلس الخيام انسللت، و مع القوم فى الزوايا رقدت، و من نسم الليل عببت، و من عطش الهجيرة - مثلهم - شربت... رأيت العزم يتكلم فى تقطيب الجفون، و سمعت الصبر يتصبر فى دهشات العيون... انها كلها مسيرة العنفوان لعناق المجد خلف رصات الحصون!!! و تم الوصول الى كربلاء من بعد مجهود عباب و خضم من عناء ظنت - عانة الذئاب - انها لفلفت قطيع النعاج فى الحظيرة، و أحكمت عليه لفات السياج، و نعجة نعجة ستلتهم القطيع على شبع لعشرة أيام!! منذ متى؟ و هذه العانة تطوى نابا و تكشر عن ناب؟! أتكون السقيفة أول العهد، و أدهى من خبأ سما و فتكا فى لثة الأنياب؟! و لكن القصة طويلة اذا عدنا الى الوراء نشرح و نسأل: لماذا ألبسوا [صفحه ۱۴۸] حواء ورقة التين؟ ان الحسين الآن هو المعرى الهازىء من ورق التين!!! لقد ألبسوا حواء ورقة التين من بستان الخطيئة، حتى يطردوها من الجنة... و لقد ألبسوا عليا بن أبى‌طالب ورقة تين من بستان السقيفة، حتى لا يدخلوه الى السقيفة... ثم ألبسوه ورقة ثانية من بستان بن عفان، حتى يمزقوه بخنجر... و ألبسوا الحسن ورقة تين من بساتين بنت الأشعث، حتى يمحوا اسمه من اتفاقية الصلح! و ألبسوا الحسين ورقة تين من بساتين المبايعات ليزيد، و لاحقوه من الكوفة الى المدينة، و من المدينة الى مكة، و من مكة الى كربلاء، حتى يحصروه فى حظيرة، و ينشبوا الأنياب فيه مضرجا بالدماء!!! و لكن الحسين ما اتخذ - أبدا - على حين غرة! فهو الذى مشى الطريق بعلمه المسبق، بعد أن حصنه بالاعلام الوسيع!!! لم يرد أن يؤخذ غيلة: لا- بسم، و لا بضربة خنجر، و لا حتى بهروب يخفيه مدة عن العيان، ثم يقبض عليه و يستهلك، كأنه قرد باصبع انسان!!! بل انه بطل وسيع الصدر، مهد السبيل لتوسيع الخبر، حتى يشمل العلم كل أرجاء الأمة، بحيث يكون لها وسع السمع و وسع البصر. فهو مقدم على شهادة تشهد له بتقرير المصير و رفض الذل من أجل احياء القدوة للأجيال فتحقق ذاتها بذاتها مع طلوع الأيام: [صفحه ۱۴۹] - ان توجيه مسلم بن عقيل الى البصرة كان القصد منه التحضير و اعلاء النفير. - ان التمويه على الوليد بن عتبة حاكم يثرب، ثم الانسلال خفية الى محارم الكعبة، كان مقصده تحريك الحفيظة من أجل زرع الاعلام فى تحضير رجال الحكم للملاحقة! - ان الافلات من بين يدى حاكم مكة عمرو بن العاص، كان مقصده أيضا توسيع الاعلام بتحريك الحفيظة و تحريك رجال يزيد للملاحقة. - ان مرور قافلة الحسين على محطات القوافل، كان القصد منه توسيع الاعلام فى نشر الخبر: لقد لحقه فى الطريق: عون و محمد ابنا عبدالله بن جعفر و لم يتركاه - و لقد فعل كذلك زهير بن القين - زوج البطلة المخلصة «دلهم» و لقد لحق به عبدالله بن عمر، و لو ذان بن أبى‌عكرمة - اما عمر بن خالد الصيداوى، و مجمع العائدى، و جناده بن الحارث السلمانى، و الشاعر الكبير الطرماح بن عدى - فانهم كانوا يمثلون أربعة آلاف مجاهد فى لحف جبلى أجأ و سلمى من أرض طى - نصحهم أن يركنوا للسكينة، بعد [صفحه ۱۵۰] أن شدد عليهم بأن يوسعوا سمعهم و عيونهم ليروه كيف يتصرف - من أجلهم - فى يوم غد!!! - و لقد تصدى له الحر بن زياد التميمى، على رأس قوة من ألف فارس و منعه من التوجه الى أى مكان غير كربلاء!!! اما عمر بن سعد بن أبى‌وقاص، فانه القائد العام الذى زنر المنطقة كلها بثلاثين ألف محارب حول حظيرة كربلاء، و فيها مئة و ثمانون - فقط - من النساء و الأطفال، و الجوارى، و الأتباع الموالين، و على رأسهم رجل فرد - اسمه الحسين - مع ابنه المرمى على فراشه و قد عاوده على طريق القوافل مرضه المشهور، بعوارضه الممضة!!! ان اسمه على الأصفر!!! اما سليمان بن صرد و معه رؤساء أخماس القبائل، فان مقتل مسلم بن عقيل، و هانى بن عروة برميهما من فوق السطوح، أقعدهم مشدوهين مكبلين - و لكن... مصغين و متأملين... أليس هكذا أراد الحسين أن يوسع الاعلام، و هو يسوق نفسه لينزج فى الحظيرة؟!! فلا يظنن أحد أن عانة الذئاب، هى التى - بفن ذكى منها - كفكفته من كل الجوانب حتى أدخلته الزريبة!!! [صفحه ۱۵۱] واها ثم واها رحت أهجس: - كيف لى أن لا أؤخذ برهبة الساحة فلا يطالنى منها لا البرق و لا الرعد! فاذا كان لى - بالأمس - أن نجوت من دوس النعال! فكيف يكون لى الآن أن أنجو من رمى النبال، و تكسير النصال على النصال؟! و لكن... لماذا الهجس و الوجس: ما كل نبل يصيب الروح و لا كل نصل يمس! فلتمطر الدنيا نبالا و نصالا من حديد... من نوع نبلك يا ابن الزياد و من نوع نصلك يا اليزيد... فهى خيوط من غزل العناكب! أو انها غزل من قوم قرود؟! من نبل سقراط غير قوم

قرود؟! من نبل عيسى غير قوم قرود؟! من نبل عليا غير قوم قرود؟! من نبل الحسنين غير قوم قرود؟! هم النابلون - أنفسهم - أصيبوا بلعنات [صفحه ۱۵۲] الأمم - واندثروا كأنهم بصاق صديد على أقفية القرود!!! اما الذين نبلوا - أنفسهم - فانهم عمالقة الذكر - و انحفروا كما سنانير النور على صدر الشهيد!!! و امتصتنى الساحة، و لقد رغبتها تمتصنى كما يمتصنى قلمى فى نقطة الحبر، و رحت - كظل أفاق من خبل - أتفقد الناس خلف خيامهم المبعثرة فى عراء السكون، و لجج من الصمت تسردقها فى هذا الخلاء الغائر فى خضم من غبار. لقد لمحت كل ما حصل فوق الأرض! و ما انتهت الأيام العشرة بلياليها السوداء، حتى رأيت أن المأساة قد حبكت ملحمتها الملطخة بالاثم، و الدم، و الهمجية الكلحاء...!!! لقد رأيت الخيام تتساند مشدودة بالحبال لصقا بلصق، يتكوم فى كل منها: الجمال، و البغال، و البراذين، و المؤن - و النساء، و الأطفال، و الجوارى، و المرضى - و الرجال، و الأهل، و الأصدقاء الموالون [صفحه ۱۵۳] المهتمون بتخفيف أى عناء عن لفيف أهل البيت المتحملين كل هذا البلاء!!! و مهما يكن الشأن... فانهم جماعة محصورة بأهل البيت، لا- تلونهم الا- سياسة تتفانى فى خدمة الأمة و اعلاء شأنها... هذا هو ذنبهم الجسيم، قطعوا به البوادى، و الصحارى، و محطات الحريق... لو انهم جاؤوا لحرب، لكنت غصت الأرض بفيالق المحاربين... و لكنهم جاؤوا ليزينوا الأرض بالسلم العفيف، حتى يراه الحاكم فيصلح به. و لكن الحاكم الكافر المستبد، لم يرد أن يفهم شيئا من رموز الاعتراض، و لم يشأ أن يصلح جزءا من سلوكه القردى - و انهمر سهاما و نبالا- على بلس الخيام... قطع الحبال و قصف الأوتاد... و ملأ الجو: صهيلا، و رماحا، و سيوفا، و نصالا، و موتا زؤاما!!! و لم يستسلم الحسين - و دافع عنه رجاله المعدودون، ولم يبالوا بأرير الموت!!! انهم المضرجون بالدم - اسم واحد منهم «عون»، و اسم أخيه «محمد»، و هما ابنا عبدالله بن جعفر... لقد رأيتهما يجاهدان متساندين، فى دفاع يائس حطم جمجمة الأول بين يدى الحسين، و قصم ظهر الثانى... أما زهير بن القين، زوج «دلهم» فانى رأيته يقفز الى حصان مر من أمامه، و يطعن الفارس من الوراء بخنجره، طعنة كبته الى الأرض قتيلا، [صفحه ۱۵۴] و هو يقول له: - خذها من يد «دلهم» و لكنه فى عصر ذلك اليوم - أثخنته الجراح، و انعزل تحت بلاس ممزق، يلهث حتى أسلم الروح... لم أعد أعرف لا عدد و لا أسماء المتنادين الى بذل الدم فى الحلبة الحمراء، غير انى هلعت لما رأيت صديقى أسعد الهجرى، بقامته المحبوكة، و صدره الوسيع المقدود من صخر - يتلقى بين ذراعيه هبوط الحسين، كأنه خارج من مغطس دم!!! انه يسحبه من أرض المعمعة، صوب نهدة من رمل شكت فيه عشرات الأسهم الضائعة عن اصابة مراميها!!! و لكن وابلا جديدا أمطرهما و أجهز عليهما فى العناق المدمى!!! على باب المخيم أبصرت شبحا يسحب رجليه سحبا هزيلا-!!! عرفته!!! لحقت به من الوراء، فتاة هى عمته زينب، كأنها قفص من حزن يابس - كفكفته بخمارها، و عصبته بكفيها، حتى لا يرى هول الجريمة!!! [صفحه ۱۵۵] بعد لحظات خرساء - نقلنى الأسى الى المريض المفجوع - ألقيت فمى فى اذنه أوشوشه: - أنا بعض منك فى الأسى الأسود... و لكنه لابد لى من أن أذكرك - و لو فى الساعة العصيبة - بأن أباك العظيم لم يسمح لك - و أنت الامام - بأن تأخذ حزنا، مهما طغى و تجبر، من دون أن تعريه من قمصانه السود... و نبهك الى أن الحزن هو - دائما - الأجرب... يشل طاقات الروح، و يسد عليها مجارى الفكر و مدارج السمو... ما رأيت أشجع منه و أروع... لقد سمع خفوت ندبى فى خفقتى المهزورة... و أدار عنقه الى سراديب المخيم... فلبته من الوراء امرأة مهزومة العينين، و فى يدها كوب، فاحدودبت اليه... تناول من يدها الكوب و جرعه مدفوقا... فارتمت عليه بلا حراك... تفقدتها و لم أعرفها... الا أنى ارتضيت الجزم النجى: - بانها من دون أى شك - تلبس لهفة أم شدها الأسى من تحت الكفن... [صفحه ۱۵۶] و لكن الليل لم يمح بعد، عندما اهتزت رهبة السكون بحوافر القوم. دخل عدد و فير منهم سراديب المخيمات، و راحوا يجمعون الحريم و الأطفال سبايا، فى حزم من حزن لا يرفع صوتا و لا نأمة من لوعة... بينما راح فوج آخر منهم يقذفون بأرجلهم جثث القتلى... حتى اذا وصلوا الى الحسين، تناولوه من حبرته الحمراء،و بضربة واحدة من سيف، فصلوا رأسه، زرعوه على رأس الرمح!!! انطلقوا - هكذا - برأس الباز... اما الجسم المسجى بحبرة الدم فأضحى مداس النعال!!! بعد لحظات شملت المكان كله فراغات - كأنها من الزمان اغماءات الزمان! [صفحه ۱۶۱]

ظل النقوش

اشاره

أى شىء فى الوجود بلا ظل؟ للنور ظل، و للعتمة ظل، و للظل ظل، و لظل الظل أيضا - ظل، و الحياة بأجمعها تسلسل اظلال تتشعب من ذاتها فى حقيقة المحسوس و غير المحسوس فى الدائرة العظمى التى هى - وحدها - ظل الله المحيط بظله. اما الاظلال كلها فهى حتمية انعكاس الحق النابع من ذاته المرسخة فى ضمير الوجود، حتى لا يمحى ظل الله فى سليقة خلقه. و للظل أثر يتركه فى الصفحة التى ينزل عليها، و له وزن من ثقله، و لون من دباغه، و طعم من مذاقه، و طول، و عرض، و عمق: من حجمه، و مدى ضغطه، و عمر تسلسله فى الاستمرار و التكرار... من هنا نرى أن الانسان فى تكوينه الفيزيولوجى النفسى المركز، هو المرآة المنعكسة عليها كل الاظلال التى مرت على اعماره فى مدى الأزمنة. لا أقصد من هذا القول ارتيادا لحدود فلسفية حول نشأة الكون و نشأة الانسان - بل يقوم القصد كله فى توجيه الاشارة الى كل الانطباعات التى يتطبع بها تكويننا الجسدى - النفسى فى وجودنا الانسانى، و من أجل هذه الانطباعات ما تحوشه النفس [صفحه ۱۶۲] و هى فى عتمة الظل. فالطفل - مثلا - و هو فى رحم أمه - يكون له أن يتقبل نقشا فى تكوينه الطبيعى أو الخلقى الروحى، قد لا يحصل على مثله بعد أن يبصر النور... معنى ذلك: أن دورة الدم فى عروق أمه تحمل هياج أو هدوء انفعالاتها النفسية، و لا بد لها من أن تضخ تلك الاشعاعات المتولدة فى الظل الحميم، الى كل مسام الجسم المتنامى فى احشائها، و هذا هو ظل الظل فى نقشه المعتم. ان الاظلال كثيرة من هذا النوع، و هى لا تحصى، لا بأشكالها، و لا بأنواعها - تنزل على السمع، و تنزل على البصر، و تنقش صفحة النفس نقوشا عميقة، و تنقش العزم و الفكر و الخيال ببطولات و عبقريات من نوعها و لونها، و من عمق مداها. و قد يكون لها عمل معكوس، تقلل كثيرا من قيمة الانسان، و تقتل فيه نفحة الجدوى. ان القسم السابق كله من هذا الكتاب - و عنوانه يحمل معناه: «نقوش الظل» هو الذى تعرفنا - من خلاله - على بعض النقوش التى كان لها بعض الحظ فى العلوق على صفحة النفس عند على الأصغر، منذ ولادته حتى الثالثة و العشرين من عمره. لقد سلسلنا بعضا منها حسبناه - من دون شك - قد حفر فى صفحة نفسه حفره الممتع، على الرغم من الظن - فى بعض الأحيان - أن علاقة بعض منها ضئيلة جدا فى عملية التكوين النفسى المنشود. [صفحه ۱۶۳] و فوق ذلك، فان للتكوين النفسى عند مطلق انسان، روافد روافد، من أين لأية عين أن تتمكن من تعيينها و تتبعها فى عمليات التشابك، و التداخل، و الاندماج؟ غير أن الاعتراف بحصولها و غزارة مواردها، مع التقصير فى الاحاطة بمجالاتها، يجعلنا نحترم مداها، لا سيما عند الذين يحتلون مراكز مرموقة فى مجتمعية الانسان. لقد مهدنا بذلك حتى نقول: ان النقوش التى اشتغلت بليغا فى نفسية على الأصغر، هى أبعد من أن تحصى و توصف، و لكن المسوق منها، و ان يكن قليلا، فجدواه فى تبليغ الاشارة الى نفسية متينة نقشتها احداث معينة، كان لها أثر فى عمليات التكييف، و البث، و الاخراج، و انها تبقى - أبدا - نقوشا تلونت بها الصفحة الثمينة التى هى المرآة المنعكسة عليها مدارج الاظلال. [صفحه ۱۶۵]

اطارات الامامة

لقد خيم الحزن على آل البيت منذ الزمن الأول - فلنسبر غور شحناته ابتداء من الامام على الأكبر، وصولا الى امامنا على الأصغر، و هو رابع فى خط الامامة، منذ هذا اليوم العاشر من محرم المختوم بحزن كربلاء! لقد صدم الامام على بموت الرسول، و لكن حزنه ذاك، ما كان ليتمرد لا عليه، و لا على آل البيت أجمعين، لو لا دفق ردىء اخر رجمهم به اجتماع السقيفة! و لقد تجدد الرجم و تضاعف الحزن مع كل عملية من عمليات الابتزاز، أبعدت فيها الخلافة عن محورها الأصيل: من أبى‌بكر، الى ابن الخطاب، الى ابن عفان، الى زرع كل أسباب الفتنة و الضيم فى غوطة الشام! اما موت بنت النبى، و زوجة الرجل العماد، و أم السيدين الموصولين بالامامة وصلة الأمة بالرسالة، و وصلة الرسالة برياض الجنان، فانه ألهب الحزن فى المفاصل، و حفره فى الخواطر، و جعل «فدكا» أخت السقيفة... اما الدور الذى وصل - هزيلا - الى الامام، بعد خمس و عشرين حجة من قطيعة، فانه دغم الحزن بالمرارة، و استمر يفعل بالنفس تشريحا

و تمزيقا، حتى أطبقت ساحة [صفحه ۱۶۶] المسجد فى الكوفة على الامام و امتصته قتيلا! و انتقل اصراع مع الحزن المستمر الى الامام الثانى، و هو السيد الحسن - و تكشفت الأحداث عن نوايا مبيتة و موصولة و صلا دقيقا بمخططات السقيفة، و كلها مشغول بفن من فنون العفاريت، تقضى قضاء مبرما على طالبى رفعته فى المجتمع سبل المكارم، و سلمته مقاليد السياسة و التوجيه، و تقبلت منه خطوط الفكر، و خطوط الروح، و كل آيات الله فى قرآن كريم. لقد ظن ذلك السفيانى الصغير، ان باحات المجد تسكرت أمام خطواته المخبولة بأفكار الشياطين، و أن توحيد الأمة بأشعة الخير، يقطع حبال القبائل، و يفرطها الى واحات الزفت و الكبريت!!! ألا فليفعل شيئا يمنع الخط عن طالبى يحاول تنشيف الأرض من حراتها!!! و حراتها هى من القبائل المشرورة فيها من عهد عاد!!! و ابتدأ الفعل العظيم يسرى: مع تكوين السقيفة - مع تجريد فدك من نخيلاتها الباسقات - مع زرع معاوية فى غوطة الشام، و حصر بردى فى أكواب بنى‌سفيان - مع حشد القبائل و تخبئتها فى المخندقات، حتى تتم بها الهجومات المباغتة - مع المبيتات المدفونة فى الصدور: سما، و قيحا، و صديدا من زئير القرود، يصطاد بها كل طالبى يمشى على الطريق، و هو فى غفلة عن القدر المحوك! [صفحه ۱۶۷] مع الوقت راحت تتكشف هذه النوايا المرصودة، بكل ما هو مخطط لها. و كان افتراض الظن يلقى على عامل الوقت تنفيذا ممتازا و حازقا لما هو مرسوم، حتى اذا ما تمر خمسون أو حتى مئة عام، يكون قد انقطع خط الطالبيين من بين الأنام، و بقيت ساحة الدنيا لسفيانى أكيد، يجدل من شعر رأسه حبلا يزنر به خصر الأرض، و يملكها: ذهبا، و مجدا، و عبيدا، و اماء!!! و ابتلع ريقه الامام الحسن - و راح يعد الأيام، أيام الدهر فى حياة الأمم، و وجد الصبر يطول عمر الاناة، و هو يقرض حبال الثوانى الفارغة، حتى يجعلها مليئة بقرعات الحق - و لا بد للحق من أن يخصب الهشيم، و يملأ قشه بحبات السنابل! و لما جاء دور «جعدة» المسلوخة من بنى‌سفيان، تناول الحسن من يدها جرعة السم، و اختصر أيام الفراغ، حتى يبقى هو - نموذج حق تمشى الأمة على مدارجه اذ تستفيق على همسات الحقائق، و تبنى ذاتها من جديد على نور وحدة فاعلة، تخصبها الرسالة العظيمة بخلود الحق. و بقى الحزن وحده الملقط الجامع آل البيت - لقد أصبح الآن و جيبا يملأ الصدور بأظلال رهيبة - و لقد تناوله الحسين و مسح به وجهه، بعد أن اكتحل به و اعتصب. انه - فعلا - حزن رهيب، طوقهم به شيطان رهيب! و لكن الحزن الواصل الى الحسين - ساعدينى يا مدارج [صفحه ۱۶۸] الذهن حتى أتمكن من تحديد الحزن الذى تكون فى طوية الحسين - فانه من النوع المجنح، قد لا يكون لنا أن نحسبه حزنا، اذا قارناه بأحزان الناس... انه عند الناس مضيض من أسى، و كوم من لوعات! اما عند الحسين، فانه حزمة واحدة من صمت و تأمل - و انه مدى آخر من ترقب مصقول، يعد ذاته لقفزة مثلى يملك بها روعة المجهول... و للمجهول عنده حدود من مجد تربط الدهر بعمر الانسان، و تعتبر الانسان تحقيقا رخيا، فى اللحظة العتية التى يمسح فيها صدره بومضة واحدة من بريق العنفوان. لم يحترم الحسين أنامل الحزن تمسح دمع العين حتى تعود العين الى سفك مجدد... ان الدمع يغسل العين - فقط - حتى ترى، لا من أجل أن تعمى... و تغرق فى النزف... و تخنع و سحقا لحزن يشل قوى السمع... و مجادل النفس و أفانين البصر! و قفز الحسين بحزنه المطيب فوق فوهة المجهول، و لقم الشهادة كلها بعنفوانه المطلق: - اذما تمسح النفس صدرها بوميض العنفوان، يمح ظل الحزن من مدمع الانسان، و تبرأ من قزمة الشيطان ردهات الجنان. و شاهد الامام الصغير، بعينه الكبيرة، قفزة أبيه فوق لجج [صفحه ۱۶۹] القهر، و رأى ملوك العهر تحت مواطىء النعل، لا يشرئب لهم خفق الا خفق حقير... و رأى ذل الأرض كلها فى دخانه الأغبر، لا تتعبا به الا صدور الأفاعى فى زحف زنيم يتجاوب به زحف زنيم... انه الختل - وحده - يمتص ذل الأرض، و يمرغ الأرض بروغات الجحيم! اما العنفوان فانه الهابط - وحده - فى مجادل الأسلاك، يشترى يقظة الذات من غيبوبة الحق، و يربطها بومضة الصبح، و ينجيها من غرق فى حزن عقيم، تيبس به العين، و ينطفى فيه القلب، و تتلاشى معه نبضات الضمير! منذ كان صغيرا جدا هذا العلى الأصغر، و أبوه الحسين ينقشه بمثل هذا النقش الأمثل - كان يفهمه أن الامامة التى هى منه و له، هى وفود من علاء، و أن الحزن الذى يتغشى أمامه من حين الى حين، هو عقيم أجرب، و ليس للنفوس الأبية أن تعيره أبها، و أن تعريته من قمصانه هو الأجدى و الأصوب، لأن الخضوع للحزن منقصة من مضاء النفس، و اقرار له بالغلبة، و ان التسلط على أسباب الحزن هو الذى يبريها و يعييه. و ما ضوءل الحزن على أبيه و لا شحت عبيه،

بل استحالت نجاواه الى كآبة غطت الوجه بمياسمها النبيلة، و سادت النبرات بهدوء رزين، و بقى هكذا ظل النفس تحت و شمه المبارك، ينسف الحزن من تشعبات الطريق، و يعلم الأمة صلاة الحق حتى يرفعها الى علياء ربها و ينجيها من كفر المارقين. [صفحه ۱۷۰] لقد تحول الحزن فى عين الامام الأمين و ثيقة من فن أصيل، من أجل تعزيز رمق الشهادة، من أجل رفع الذات من وهدة الذل، و تسجيلها حرفا من آية نطق بها جده نبى المرسلين. ان اطارات الامامة أمنع من أن ينشفها الحزن من الفرح الآخر الذى هو عز الحياة و جلوة الحق... ان مقر الشياطين هو - أبدا - فى صقر، و ان نقطة واحدة من عنفوان الحق تطمر الشيطان فى جحيمه... [صفحه ۱۷۱]

رمق الشهادة

و ابتدأ يتعزز فى العلى الأصغر رمق الشهادة... مع هذا النهار الأول البازغ من تحت أقدام أبالسة الجحيم ابتدأ يتعزز رمق الشهادة التى قدمها حسين كربلاء... لقد شاهدنا - و شاهدت الأجيال - كيف كان يتفجر الجحيم فوق هامات الشهداء... كيف كانت نعال الهمجية تدوس أجسادا جردتها من روح الله المسكوب فيها، و راحت تحز الرؤوس ترقص بها مشكوكة على رؤوس الرماح... كأن الله ما جدل ذاته فيها آيات منورات شعت بالحق و كحلت به مقلة الانسان. هؤلاء هم شياطين الجحيم - أو بالتعبير الأصح - وحوش الأرض نزلوا كربلاء و مثلوا بأشلاء القتلى و أضرموا النار فى الخيام و الأخبية، فحجزوا حريم الحسين، و الأطفال، و المرضى، و ساقوهم سبايا كالأغنام فى شوارع الكوفة، لتنشرح بهم عين الأمير، حاكم الكوفة، عبيدالله بن زياد. قرت عين الأمير اذ وقعت على كوم من سبايا مغلولات بالبؤس، و الحزن، و تمزيق الصدور، و فى رفقتهن فتى حقير تشد به الى الأرض أثقال المهانات... تأفف الأمير الخطير الشأن من [صفحه ۱۷۲] النظر اليه، و هو المدله برقعة مجده، و انحدر اليه بالسؤال. - من أنت؟ و كان الجواب الصغير كأنه لطخة من تهكم: - على بن الحسين... و اشمأز الأمير من رنة الجواب و انبرى يسأل: - ألم يقتل الله عليا بن الحسين؟!! و ارتفع الفتى الوضيع قيراطين فوق راحتى قدميه و قال: - «كان لى أخ يسمى عليا، قتلتموه... سترونه أمامكم يوم القيامة». و لكن الأمير الذى تعرف الى الله عن لسان محمد تلطى برب محمد، و أحال عليه ثقل الجريمة و هو يتبرأ: - لم نقتله نحن، ان الله قتله. و على الفور كان الجواب: - صدقت: «الله يتوفى النفوس حين موتها... و كان لنفس أن تموت الا باذن الله». و لكن - اعلم أيها الأمير: ان الله لا يقتل، بل يحيى... و اذا كان الموت باذنه - سبحانه [صفحه ۱۷۳] - فهو استدعاء و اثابة... أو - بالمنطق المجرد - استيفاء النفس الى مصدرها. لم يرض الأمير جواب جرىء مؤمن، بل خبله الجواب الذى لفه بثوب الهمجية و جلببه بجلد الوحش!!! و هكذا أمر الجلاد الواقف على بابه، بضرب عنق الفتى الجربان المتجرىء على سيد المكان. نحن الآن فى استحضار نفيس غير خائفين على على الأصغر من حذف عنقه تحت ضربة الجلاد، لأننا نعلم أن عمة الفتى الطاهرة زينب، المهدودة الركن و العين و اللب، أخذته بزنديها، و اشترته بحياتها حتى لا تتم عليه جريمة الغاب... لقد رضخ ابن زياد - لوتر فيه كان فى ما مضى ينبض - فتساخى و عفا. و هكذا نرى أن شيطانا فى نفس ابن زياد قد طمرته فى جحيمه نبرة من عنفوان أمام فتى عمره فى الامامة يوم واحد. و اندثرت قرون عددها أربعة عشر... و لا يزال رمق الشهادة ملتهبا بوميض النور: يزين اسما بمرجان الجنان... و يبرىء الثانى من عفة المرجان... و تكرم الأمير بلفتة من شهامة، دعمها بتساخيه و عفوه عن الفتى المغلف بحزنه و ذله، و أتاح له نعمة القيام بدفن أبيه و عمه الفضل بن العباس - فلملم الامام المهيض الجناح أشلاء أبيه [صفحه ۱۷۴] المحزوز الرأس من موازاة الكتفين... و أنزله فى حفرة ما وسعها الا شرف الشهادة... و أنزل عمه الفضل فى حفرة كريمة موصولة بأختها، مسقية بعطر الدم و مضمخة بنبل الفداء... بعد ساعة مضنية بالتأمل المسحوق، تقدم البطل شمر بن ذى الجوشن، فسحب الفتى من وهدة صمته، و غل عنقه بحبل أسود: لقد عين ابن الجوشن قائدا لنقل موكب السبايا من قصر الأمير ابن مرجانة فى الكوفة، الى قصر الخليفة ابن معاوية فى رحاب الشام. و على ذات الموسيقى - من ضرب دف و نقر و تر - تم نقل السبايا فى رزم مربوطة بخيطان رخيصة، على ظهور أتن بلا أرسن تضبطها من هزيان... و لكن حمارا ذكيا، يركبه من هو أذكى منه و أفخم، كان يضبط حبل الاتن على الطريق الممتد من الكوفة - عبر واقصة - الى تدمر فغوطة الشام. هنالك أطفال صغار فى القافلة، كانوا

مربوطين بحروج النساء... أما الكبار منهم فكانوا محزومين بزنانير حول خصورهم الى خصور أمهاتهم... اذا حددنا النظر قليلا نرى - مثلا - زنارا محيطا بخصر فاطمة بنت الحسن، زوجة الامام ابن الحسين، و طرفه الآخر حول خصر ابنها محمد الباقر، أظن عمره الآن أربع سنوات... و نرى أيضا بالقرب منهما الامام عليا الأصغر - و لا رجل غيره فى حبل الأسارى - يركب أتانا حقيرا بمحازاة أتان [صفحه ۱۷۵] حقير آخر تعتليه عمته زينب... ان الاثنين مغلولان بحبل واحد ممتد من عنق الى عنق لتشديد الدلالة على أنهما أسيران محترمان ترهبهما خطوط القوافل، و تعتز بتقييدهما جيوش يزيد... و وصلت القافلة الى أرض الشام، و مرت فى زواريب الأزقة - مرت فى وضح النهار، و لم تمر فى غلسة الليل، لأن الليل يغمض العيون بعتماته، و يحجز الناس المتفرجين فى أسرة النوم، فلا يرون ما يريد أن يعرضه عليهم المهرج الراقص بسعادينه، و زمر دببه، و طبوله، و آلات زمره... ألم يكن المهرج ذاك يكنى بأبى قيس؟ أحذق قرد فى عالم السعادين، و أذكى من رقص فى ساحات القرود؟ أليس هو - يزيد - الذى سيطر على البصرة و الكوفة و أخضعهما تحت امرة عبيد الله بن زياد، فزنر كربلاء بسياج من رماح، و أسنة، و أقواس موتورة بآلاف النبال؟ أليس هو الذى شحن الليالى العشر بالرعب، و أطبق على ساحة ليس فيها أكثر من مئة و ثمانين من النسوة و الأطفال، و العجز، و العزل الذين لا حول لهم و لا طول فى اقامة حرب تستدعى حشد قوة من ثلاثين ألفا يصولون و يجولون بالأبطال، و الفرسان، و الخيول، و الرماحة، و نصابى قواعد المنجنيق؟ هل كان كل ذلك فيه أكثر من تهريج على الناس، يبطن التخويف و الترهيب ان لم يبايعوه و يخضعوا لسلطانه؟ و يكون هو - فى الوقت ذاته - قد نفذ القتل و التدمير، أمام عيون الملأ، بمحو العاصين الذين لم يخضعوا [صفحه ۱۷۶] لسلطانه؟ لماذا لم يأسر الثائرين و يرمهم فى عتمات السجون؟ اذا كانت نيته صافية من التهريج و بث الذعر فى الألباب؟ لماذا لم يخطف العاصين - هؤلاء - خطفا بهجوم لا يستغرق منه الآن أكثر من ثلاث دقائق، و يستريح من الرقص و التهريج؟ لماذا لا يقلد الا الفهود و الهررة - و هما من فصيلة واحدة فى القفز و الفتك - فالهرة الشرسة لا تلتهم فريستا الصغيرة الا بعد خمس ساعات من مداعبات فيها كل لذات القهر، و العهر، و التهريج المرير؟!! أليسوا هكذا فعلوا بجرجرة السبايا فى الأزقة و فى وضح النهار؟ حتى يرهبوا الناس بلون فتكهم الذئبى - الفهدى - الخنزيرى - الملطخ بشراسة السراحين؟! يا للقسمات الواضحات، رجعوا بها الى طبائع الحيوان، و لم يسموا بها الى مدارج القرآن!!! أخذوها من ظفر فهد و هر، لا من أنامل عطف و بر... و لا من سمو، و لا من ايمان نقى، و لا من رهان جليل لتحقيق عزة الانسان، و حضارة الانسان، و تعزيز الوجد فى ضمير الانسان!!! هكذا دخل القائد المفدى شمر بن ذى الجوشن - بالسبايا - أزقة الشام، راقصا برأس الحسين مشكوكا على رأس رمح - و خلفه رتل من سبايا صامتات، مصونات، مغلولات بذل مسحوب من قفا قرد، و ظفر هر، و عين خفاش!!! وحده - على بن الحسين - قفزت به الأظلال من مدى الى مدى، اذ هبط عن ظهر أتانه الى شوارع الشام... لقد كان ينوء [صفحه ۱۷۷] بثقل حزن لا هوادة فيه، و هو يخط دروب البادية من واقصة حتى شرائح تدمر - و لكنه الآن - و قد تلقفتهم عيون الناس فى المدينة - خف الى نفسه، نسى أنه الذليل - الجريح - المدمر، لقد تبدل به عنفوان الذات من متعب، حقير، مهدوم النفس، و مهدوم العافية، الى بطل آخر: يرفع جبينه شعار العز، و يوسع صدره فخار الانتصار... هكذا مشى تحت عيون الناس: بقدم هزيلة مثقلة، و لكنها متينة الثبات - بعين مفتوحة بنعاسها، و لكنها غائمة القرار - بجبين مفسوح و مرفوع، و لكنه مهزوم المدى - بيد مكبلة الى خصره، و لكنها مهزوزة الريح بأصابعه الملتاعة. و الناس؟ ما القصد من تكديسهم فى الشوارع؟ أليس ليلقوا على هذا الفتى نظرة التحقير؟! و لكنه - كما يبدو من ظاهر عريه - لا يستأثر الا بلفتة التقدير... فلماذا - اذا - كل هذا الحشد تنتخم بهم الأزقة؟ و ما هى الغايات من مثل هذا التذليل و التشهير؟!! لقد راحت عيون الناس تتبادل السؤال بتطارحات منوعة، فيها كثير من ذكاء، و فيها كثير من عياء... و لكن السؤال الصريح كان يتخبأ تحت اللسان، من دون أن يجرؤ فيفصح عنه أى بيان!!! ان التوريات - وحدها - كانت تتلاعب بالاشارة: [صفحه ۱۷۸] هذا شيخ مسن - بكى لما وصل اليه الفتى المخبول - فاندس قربه و راح يسأل: - أنا لا أراك تستحق الذل... ألا تكرمت على بكلمة تخفف عنى الضيم؟! وغمره على بنظرة شفافة و أجاب: - هل يكفيك أن أقول لك: أنا على بن الحسين بن على، و ابن فاطمة بنت الرسول؟! ما كاد الشيخ يسمع التعريف حتى وجه رأسه نحو الفتى الأسمر، و راح يحدق به...

بعد قليل هبط الى الأرض كأن اغماءة خطفته عن عصاه... و لما أراد الفتى أن يتداركه الى صدره، فاجأه من الوراء رفس الحراس لمتابعة المسير. و توبع المسير مع لجاجة الزحف... و تم الوصول الى باحات القصر - فانكفأ الناس مفسحين للحراس بتمرير السبايا من تحت العتبات المذهبات، فالأمير يزيد و هو الآن الخليفة المهاب - بانتظار وصول فتى، اسمه على الأصغر، ليتعرف عليه، و يستكشف سر نجاته من وطء النعال! [صفحه ۱۷۹] أما الفتى المحمول على مثل هذه المحفات من التكريم و التشهير، فان عين الأمير ستقع عليه للمرة الأولى. لقد كان يعرف أن أباه الحسين خطير جدا، فهو من دوحة طالبية تجسم فيها الخطر على سفيانيته منذ عهد الجدود... لقد أخبره أبوه معاوية - و عند معاوية الخبر اليقين - أن لا- وصول لسفياني الى شرفة مجد، الا- بسحق شامل لكل جذر من جذور الطالبيين... فليكن منهم - كطالبيين - من ربط الجزيرة كلها بملاحف الدين، و لكنهم - كسفيانيين - على مهل، على مهل رشيق، سيزعزعون الخط بتمويه العسل، و ستبقى لهم - فى نهاية الشوط - آيات الرحيق... لهذا كان للحسين أن يموت الميتة البطيئة - كما كان لأخيه الحسن أن يموت الميتة البطيئة - كما كان لأبيهما أن تلفه الميتة البطيئة - كما سيكون لهذا الفتى المشهر به، أن ينزح بطيئا بطيئا الى يثربه، تجذبه اليه ميتة بطيئة!!! و أطل على الدار الفسيحة المطعمة بالعاج و الياقوت الفتى الذى اسمه على الأصغر، و بالقرب منه عمته التى اسمها زينب. و امتلأت أركان المكان بالسبايا المقرحات الرافلات بالخز و الدمقس و أوشحة البرفير، كأنهم جميعهن الهابطات من الجنان العلى، و هن الموشحات بالعفاف السنى، لتقر بهن عين الخليفة فى ساعة مجده! و ما أدرنا ما معنى الخليفة؟ انه هو المغروف من نعيم محمد فى الفهم، و الاستيعاب، و التمثيل، حتى يكون من [صفحه ۱۸۰] بعده فى حقيقة الاستشراف و الاستمرار، من أجل امداد الرسالة بمقوماتها التوحيدية الجامعة، و السير بها من مداها الى مداها الأصيل. على الخليفة أن يكون فرعا من مغزل المخلوف: خيطا و غزلا- و تعيينا... فما أجل هذا اليزيد! حظى بالتعيين الرزين، قبل أن يترك الأرض ولى المسلمين. وقف العلى الأصغر تحت شملة اليزيد الأكبر، و تناوله - دفعة واحدة - من فوديه حتى أخمصيه. ثم فتل القاعة كلها بعزلة عينيه، من شهقة السقف حتى الحضيض المنضد - ثم أدار عنقه المغلولة بمرسة سوداء، و راح يدور بها من وجه الى وجه، كأنه يتفحص نفس كل عزيزة من أهله: ما هو لون مشاعرها فى هذا المدرج الأنيق؟ لقد لف الصمت الفصيح كل القاعة بهذا الشكل المبدع - لم يتململ منه - فى النتيجة - الا- يزيد... لقد أحس أنه أمام رجل بعيد جدا فى لمحه الأخاذ، حتى أنه رأى نفسه - تحت هاتين العينين - كأنه المعرى من كل ما يستره عن العيان. لقد أدرك أنه - من لمحة واحدة - فهم كل ما دار و يدور فى خلده، و أن كل ما سيقوله له، قد أصبح فى حقيقة فهمه و علمه، و أن كل احترام سيقابله به، انما قد فرضه عليه ثقل آخر فطنت به المعية فى شخصيته، و توازن فى مواهبه... و سريعا ما رأى نفسه محتاجا [صفحه ۱۸۱] للتخلص من وقوفه عريانا أمام من قصد - هو - أن يعريه من عزته المنقوشة فى بطانة نفسه، و الموصولة بجده الكبير، نبى الأمة، و نبى المسلمين. و هكذا استدعى رئيس الديوان، و قاله له: - فكوا أغلال القوم - و خذوا الأسيرات الى غرف القصر - و امسحوا حزنهن بما يلزم من التكريم - و ألبسوهن ثياب الأميرات. أما أنت أيها الامام، فاقترح على ما تريد - الا- أن تطلب ارجاع رأس أبيك اليك... أصبحت أعرف أنك تحزر السبب، لهذا و فر على و عليك خوضا بهذا المجال... ما عدا ذلك فانك المكرم فى قصرى حتى ترتاح من أتعاب رشقناك بها... انك تقدر - ساعة تريد - أن تعود الى يثرب بقيادة النعمان بن البشير... و لكنى أوصيك بأن لا تتجاوز حدودك فى يثرب، فأنت محترم فى مجالك، و لا تتعد المجال... فهل لك ما تقوله لى قبل أن تترك المكان؟ لقد فهم الامام كل ما قصد الأمير عمله، و رأسا أجاب: - سريعا ما فهمتنى أيها الأمير، و أنا بدورى لم تخف عنى نواياك، لذلك لى عليك رجاء: [صفحه ۱۸۲] لا تشط فى سياسة الأمة - انها أمة جدى، و انها أمة أجدادك بلا مراء... لقد وفرها سالمة عمى الحسن، و حقن دمها من الهدر، أما أبى، فأنت أخطأت كثيرا باهدار دمه، لا لشىء الا أنه لم يرد أن يهدر عزة الأمة... فيا ليتك لم تقصر من أناتك، و ما عجلت على امتلاك الدنيا التى لن تصبر طويلا حتى تفر من بين يديك... ما عدا ذلك، فاقبل نصيحتى، و لا تؤذ الرعية لعل جدى يغفر لك... بعد ثلاثة أيام كانت قافلة السبايا تستعيد رمقها نحو مدينة يثرب. [صفحه ۱۸۳]

النعمان بن بشير

و النعمـان بن بشـير؟ أليس هو اياه، ذلك الـذى لف أصابع نائلـة بقميص زوجها المقتول الخليفـة عثمان بن عفان؟ لقـد هاجت الثورة على الرجـل، فـاقتحموا داره بالسـيوف و الخنـاجر - صـدت المرأة عن صـدره بكفهـا ضـربة السـيف، فانبترت أصابعها و أردت الطعنة الرجل قتيلا. و اتجه النعمان نحو معاوية فى الشام، بالقميص المضـرج بالدم، و فيه ثلاث أصابع بلون العندم، فشـهد زورا: أن القاتل هو على بن أبىطالب... و لبس معاوية القميص، و علق أصابع نائلة فوق عتبات القصر، ليبقى له دائما ذلك الاستئثار بطلب الدية و استيفاء الثأر. يا للمفارقات الغريبـة - فالرجل ذاته الـذى خلـد قميص عثمان، و جعله مأربا من مآرب بنىسـفيان، هو المكلف الآن بارجاع ابن الحسـين - الى يثرب - فى قميص السـلامة. ألف النعمـان بن بشـير قافلـة ارجـاع الامام على بن الحسـين من الشام الى يثرب: من عـدة هوادج للحريم و الأطفـال، و من عـدة جمـال و بغـال لحمل المؤن و اللوازم التى يطلبها طول الطريق، و من [صـفحه ۱۸۴] عدة خيول مضـمرة لقائد القافلة و للامام العائد مكرما الى مسـقط رأسه، و لعدد من الحراس المولجين بضـبط المسـير، مع نصف الليل تم الرحيل المنظم - سـتكون دائرة واقصة فى الانتظار. قسم من الحراس أمام القافلة، على رأسهم دليل، يليهم - رأسا - رتل الهوادج، ثم حصانان فخمان، يعتلى واحـدا منهما الامام على، و يعتلى الآخر على اليسار القائـد النعمان - ثم يأتى دور البغال و الجمال، ثم قسم من الحراس فى ذيـل القافلـة. لقـد كـان الترتيب رسـميا - و لا غرو - فالخليفـة يزيـد بن معاويـة هو الآمر باعـداد القافلـة، و هى التى تسـير الآن فى حقيقتهـا من صـحة التمثيـل. امـا الحـديث الـذى كـان يـدور بين الرجلين البـارزين - وحـدهما - على طـول الطريـق، فـانه كـان كـثير الاقتضاب، حسبما تفرضه اللياقة و الكياسة، أو بنسبة ما تمليه قواعد السلوك و بوادر التهذيب. فمن جهة، ليس بين الشخصيتين تعارف سـابق، و من جهـة ثانيـة - ليس الظرف الاـ قاسـيا جـدا لا يسـمح بتناول حـديث مفتوح: فوضع الامام مأسوى، و الحزن - بعـد حصول النكبة، و عمرها بضـعة أيام - هو الذى يفرض الاحترام، و بالتالى، الاعتصام بصمت و تأمل. بين الفينة و الفينة، كان يشعر ابن بشير بان رفيقه فى الطريـق، يوجه اليه نظرات مسترقـة، كأنهـا فاحصـة - ثم لاـ يعتم أن يخفيهـا ببعض التمويه. بعـد الوصول الى «واقصـة»، و هو المفرق [صفحه ۱۸۵] المشـهور المتشعب شمالا نحو الكوفة و البصرة، و جنوبا نحو مدن الحجاز، توقفت القافلة على طلب من الامام، للتوجه نحو الكوفـة، للقيام بزيارة ضـريح أبيه و ضـريح عمه الفضل بن العباس، فلبى النعمان طلبه، و شـكره الامام و هو يركز عليه عينا كأنها تحاول الاستفحاص عن دخيلة فيه يريد استكشافها. و عادت القافلة من الكوفة الى واقصة لاستئناف المسير، اما النعمان فانه صمم على أن يسـحب رفيقه من دائرة الصـمت - و لمـا سـنحت الفرصـة توجه اليه بالكلاـم: - فى صـمتك كثير من التعبير عن حزن أنت به أولى، ألا يمكننا أن نتحـدث قليلا يا سـيدى فنبرى طول الطريق بما قـد يخفف من ثقل معاناتك؟ فتبسم الامام بسـمة مهذبـة القصد و التوجيه و اسـتدار نحوه مجيبا: - لقد لمحت يا سيدى انك تريد الاحتكاك بى على مرتين كنت أنا فيهما أحاول أن أنفتح عليك. أما و قد سبقتنى بالمبادرة، فلا بأس من أن نتبادل معا أطراف الحديث. لقد طرح الخليفة اسمك على عندما و عدنى باخلاء السبيل. هكذا عرفت أن النعمان بن بشير هو الذى يقود قافلة ارجاعى [صفحه ۱۸۶] الى يثرب، و من هنا أقول: لك نقش فى بالى طول ظله سبعة و عشـرون عاما... و لكن عينى لم تقع عليك الا مع بداية هذه الرحلة التى تردنى أنت فيها - هكذا - حزينا - الى مسـقط رأسى. سمعت بك و أنا فى الكوفـة - كان عمرى أربع سـنين - و أنا الآن فى الرابعة و العشـرين. اما الحديث عنك فكان قبل أن أولد بثلاث سـنين، أى سـنة مقتل الخليفة عثمان بن عفان. و هكذا فان مقتل على فبعد هذا التاريخ من مقتل عثمان بثلاثة أعوام، على يد مجرم تعرفه أنت - و عرفته أنا باسم ابنملجم المرادى. أترانى بهذا القول يا سيدى أضبط أحداث التاريخ؟ أخذ النعمان الحديث المفتوح بهذا الشكل و لم يجب عليه الا بعد تفكير و اسـتغراق: النعمان: يبدو انك تضـبط نقلة الأحداث، و لكنى لم ألمح بعد المناسبة التى نزل اسمى فيها على بالك و أنت بعمر الأربع سـنين. الامام: أن ذلك واضح يا سـيدى - انها مناسـبة مقتل جدى الامام على، على يد المرادى، و كان عمرى فى تلك الساعة أربع سـنين! [صـفحه ۱۸۷] النعمـان: و مـا دخل النعمان بن بشـير بمقتل الامام على؟ الامام: ألا ترى لمقتل ابن

عفان صلة بمقتل ابن أبى‌طالب؟ النعمان: أهكذا ترى؟ الامام: أنا أرى أن ما يحصل عن طريق المداورة هو أبلغ من الذى يحصل عن طريق المباشرة! النعمان: ربما يا سيدى، و لكنى لم أفهم بعد ما تقصد. الامام: أنا لا أقصد الا شيئا واحدا يا سيدى: هو فتح حديث نشبع منه نهم الطريق، و نقطع به المسافات الطويلة التى - لو كان لنا أن قطعناها برويه و امعان - لكان نجا من بترة العمر عثمان بن عفان - و لكانت الأمة قد تربعت طويلا فى حضن امام متين الرسوخ فى كرسى البلاغة. قال الامام ذلك و سكت على بعض التأمل - اما ابن بشير فراح يمضغ ما سمع، و هو غارق فى مناجاة الذات - قال فى سره: - ان الرجل عميق القرار، يلتهمك قبل أن [صفحه ۱۸۸] تمد اليه اصبعك. لا بد انه من الصنف الفريد، يشملك بمهابته اذ يلفك بهدوء عينيه... لقد بدا ذلك من تصرف الخليفة ازاءه: لقد استدعاه مكبلا- من الكوفة، ليلعب به كما تلعب الهرة بالفأرة، و اذا بالفأرة هى التى تعلم الهرة تنعيم الأظافر. يا للنفس كم هى تزخر بالطاقات الجليلة تفيض بها العين فيضة سحر!!! فى هذه اللحظة بالذات، توقفت القافلة و سمع صوت الدليل: - نحن فى محطة «مياه العرب» فاستعدوا للنزول. بعد يوم من راحة - و كانت قد ملئت القرب من الماء المجمع الى المنطقة من الجبل القريب و اسمه «جيل لعلع» - انتظم المسير نحو «الحاجر» و جبل «لعلع»... قبل الوصول الى «التنعيم»، و هى آخر محطة رئيسية من محطات الصحراء، كان قد تم الحديث المعلق بين الرجلين مستكملا مواعينه. و هكذا كان لابن البشير أن جدد السؤال: النعمان: لا أزال متشوقا لاكمال حديث فتحته بالأمس و أبقيته ملفوفا بالغموض. لقد قلت انك تعرفنى منذ سبعة و عشرين عاما - فهل [صفحه ۱۸۹] تفسر لى ذلك؟ الامام: ألم تحمل منذ سبعة و عشرين عاما قميص عثمان بن عفان من يثرب الى الشام! لا أظنك الا ذاكرا. و انفتل ابن البشير نحو محدثه كأنه رجع من غيبة تقدر بمئة عام و سريعا ما ملك روعه و أجاب: النعمان: صحيح... لقد نقلت خبرا ملفوفا... بقميص... انها نعوة... و لكن... أى ذنب فى نقل نعوة ملفوفة بقميص؟ الامام: ليس القميص لنقل الخبر، اما قميص القتيل فمعناه: لف عزمك بقميص القتيل و لا تنس... فالثأر هو المطلوب فى بث الخبر... أتريدنى أربط ذلك بما جد من الأحداث حتى مقتل الامام على بن أبى‌طالب؟ النعمان: و أى دخل لقتل الامام بنقل قميص القتيل الى الشام؟ النعمان: هنا الموضوع كله يا أيها السيد الباقى فى السلك الرسمى من ديوان ابن أبى‌سفيان... أنا لا أقصد الانتقاص من عافيتك فى ظل بنى حرب... و لكم تمنيت - بعد أن تمليت من [صفحه ۱۹۰] معرفة الأوضاع - لو أن لمعة واحدة من لمع نشاطك الذكى، تمكنت من توجيهها - و قتذاك - لانارة الشعب المعتم فى نفسية الناس المتلهين بوتائر الضغائن و أخذ الثأرات... لو درست أنت - فى تلك اللحظة التاعسة - أسباب مقتل ابن عفان، لوجدت أن ابن عفان هو الجانى الوحيد على ابن عفان، لضعف فى البصيرة، و انشلال فى النظر، و لسوء جسيم كائن فى النفس من طوية جاهلية حقيرة الحقد، ما بنت مرة واحدة انسانا، و لا نقلته الى صف البشر. كيف رأيت - يا ضامن ايصالى الآن الى يثرب أن قاتل عثمان هو ابن أبى‌طالب؟ و ابن أبى‌طالب هو الأول فى الصف المرزوم تحت عين نبيك، و نبيى، و نبى المسلمين... كيف رأيت أن ابن أبى‌طالب يقتل الانسان و هو يحيى الانسان؟ و كيف لم يمكنك أن ترى أن العدل، و التقى، و طهر النفس، هى كلها فى بنية الامام، و انه اشتقاق شفيف من نبى عفيف، سحب الجزيرة كلها من بطون القبائل، و نجاها من الخبل، و قال لها: كونى من معدن رجل يكملنى، اسمه على، و سمته على، و نهجه على، و لا تنزلقى الى غيهب [صفحه ۱۹۱] ماض لم يكن فيه غير الحقد، و غير أخذ الثأر، و غير الانفراط السخيف! قال الامام هذا القول، و التفت صوب رفيقه، فرآه على ظهر حصانه مصغيا و هو منكس الرأس، فسكت قليلا ثم توجه اليه بصوت آخر، فيه كثير من انكسار النفس ممزوجا بعطف سليم، و ألم مجروح، و عتب دامع: - لماذا لم تصدقنى فى ذلك الحين؟ أؤكد لك - و لو لم أكن بعد قد ولدت - أنى تتبعت خطاك. و لكنك كنت سريع العدو فى قفزك نحو الشام... و لكنى ما يئست، بل بقيت أمشى و راءك بخطواتى الهزيلة، و أنا أصرخ فيك: أقصف القميص من يدك، ان فيه خنجرا مسموما، يفرط الجماعة، و يمتص منها الصواب!!! بلغ الخبر وحده - اذا أردت - من دون تحريك الضغينة، و اللجاجة بأخذ الثأر... ان فى ايصال القميص الى معاوية - اذ فعلت - هذين المعنيين، و هما من ملتمساته لاحتواء الأرض - و امتلاكها فى عبه، ذهبا، و جاها و سلطانا... بينما الذهب هو ملك الأمة كلها فى رفاهية الانسان الذى يبنيها بميزان الحق - و الجاه هو مطرفها المغزول بالوعى، و الفهم،

و الادراک، و لا يجوز اذا [صفحه ۱۹۲] تعريتها منه - اما السلطان فهو العادل، التقی، النقی، المغطی الأمة بحبرات السماء... و من الحيف و الاجرام أن لا تلقی علی مثل هذا الأنيق سطوة السلطان. و التفت الامام صوب رفيقه، فوجده فی ذات الغرق و ذات التركيز، فشدد عليه لهجة الطلب: - بدلا من أن توصل الی معاوية قميصا مسحورا بتهييج الفتنة، جلس من قناته - اذا عقلت - و قل له الكلام الجرىء اللامع، و أبعده عن مركب العصيان، و أربطه باطاعة السلطان، و لا تخف عنه حقيقة القول: ان ولينا العظيم - و هو محمد - طبخ لنا جوهر السلطان، و فسر لنا، بالبيان و العيان، لماذا و كيف ألقی علی علی و شاح السلطان. اذا كان معاوية لم يرد أن يفهم، فلماذا أنت لا- تحاول أن تجعله يفهم؟ و سكت الامام، كأنه يريد أن يحصل من رفيقه علی جواب - و لكن الصمت كان غلاف الليل... و كأن الامام ما كانت له قابلية الصمت، و بصوت أخف قوة و مراسا، و فيه شیء من بحة، استأنف البث: - هل تدری يا سيد الأمس، أنی بقيت [صفحه ۱۹۳] أتتبعك فی ذلك الليل - و أنا طفل هزيل القدمين - حتی وصلت الی المفرق الكبير المعروف «بواقصة؟» و لما وقفت أتبين أين صرت؟ رأيتك - مع شروق الشمس - تضرب قفاك بأزقة الشام، فقلت: هل سمع حامل القميص الستغاثاتی؟ أم انه ضربنی بنعله و مر؟ و لما بلغت أربعا من عمری، و كان جدی قد خر صريعا تحت ضربة خنجر مسموم، بكيت و أنا أقول: انه الخنجر الملفوف بقميص عثمان! ليت النعمان بن بشير لم يحمل - أبدا - قميص عثمان. و انخطف صوت الامام - و لكن نشيجا سمعه مع خفقة الليل، جعله ينفتل صوب النعمان، فرآه يمد اليه باعه و يقول: - أنت يا سيدی بهی جدا أترانی هكذا أغرقتك فی الحزن؟ و لكن حزنك بهی أيضا، أصابنی منه رشاش عطر... و أسكته الامام بنبرة جديدة: - دع الحزن يكمل مداه يا صاحبی - انه الآن عنصر من كيمياء روحی. سأحوله - يوما بعد يوم - الی نوع من بلسم نداوی به - معا - [صفحه ۱۹۴] جراح الأمة التی هی، بالنتيجة، حزننا المفتوح!!! اما الآن، فما أحوجنی أعرض عليك - بسرعة - كم جرح الأمة نزيز السم من قميص عثمان!!! انه كشف أليم زجك حرفا يابسا فيه نهج الخليفة عمر بن الخطاب! ليته لم يمرغ به ضلعا من ضلوعه فی اجتماع السقيفة!!! اما النتائج، فتصور أنت مبلغ ضغطها فی جسم الأمة الطرية العود: أول نقرة من نقرات الخطأ هی ثورة صغيرة حذفت ابن عفان... اما النقرة الثانية فكانت من نوع الشرارة الملفوفة فی قميص عثمان، تذرع بها معاوية المزروع فی غوطة الشام، و راح يخض بها جروح الجماعات الخارجة حديثا من عتمة القبليات... خذ يوم الجمل، و تذوق معی طعم المضيض... خذ معارك النهروان و استشرف معی فلسفات الجهل و مبتكرات العی... خذ كذلك معارك صفين، و متع عينك بشعاعين مقصوفين من بهجة الشمس... يا للقرآن نمزقه بأيدينا و نحن نعده بالآيات!!! خذ كل الامام علی - وحدة و تفصيلا - و امسحه من رضوان لنبی - فماذا يبقی لنا غير الكفران، و العصيان؟ و غير قرآن نكذب عليه؟ و غير أمة نبللها بذل قديم، [صفحه ۱۹۵] و نهدرها فی مكبات الضيم!!! لقد حاول الحسن أن يرتق الفتق، و يجمع الناس من شتات الفرقة فكانت له دقة العنق - و حاول الحسين أن يرفض الذل، و يمسحنا بدفق العنفوان، فكان له بالمرصاد قميص عثمان لا يزال يلبسه - بالارث - يزيد بن أبی‌سفيان!!! يا للواقع الذی فجر الحزن علينا شآبيب شآبيب!!! و يا لنا - بمفاتيح الصبر - نبری حروف الضيم و نفتلها الی بلسم... ليس من أجلنا نحن فی حقارتنا الهزيلة، بل من أجل الأمة التی صاغها محمد، من حزنه المطلق، لمجده المطلق... لم يكمل الامام نزف نفسه - عندما سمع عاليا صوت الدليل: - وصلت القافلة بخير - تركنا التنعيم و نحن الآن فی يثرب... و التفت الامام - و كان الصبح قد شف - فرأی صفوف الأهل فی يثرب بالانتظار الدامع - الصامت - الحزين... و وجد النعمان [صفحه ۱۹۶] بن بشير واقفا أمامه، مادا ذراعيه لاحتوائه ينزل عن ظهر حصانه... و اعتنقه النعمان و هو دامع صامت، من دون أن تخفق به أية كلمة. [صفحه ۱۹۷]

من يثرب الی يثرب

لم تكن كثيرة تلك الدروب التی مشاها علی بن الحسين. لقد كانت مصحورة بين يثرب، و الكوفة، و مكة، و مدينة الشام، و لكنه لم يترك يثرب و لا مرة الا و عاد اليها مثقلا بجنی عجيب غريب جمعه باقات باقات، و خزنه فی زوايا بيته... ثم بنی قصورا ذات قباب، ما

بنى مثلها الا- أثرياء قلائل، شحت بهم دروب الانسان، و اغتنت بهم مجتمعات الانسان. لقد رافقناه يمشى فوق الدروب، و لكننا لم نلاحظ مليا كيف كان ينقشها بخطاه، و كيف كانت - هى - تمده بعصارات تنز بها من تحت راحتى قدميه، فيمتصها الى جيوب نفسه، و يخمرها فى وعاءات روحه، و يخزنها فى خلاياه الوسيعة ثم يسكبها فى ساعات الشح، يروى بها دروب العطاش التى يقحلها زفت، و كبريت، و حرمان، و حزن صامت، و جهل غارق فى نسيان الذات. لقد رافقناه - منذ لحظات الولادة - يستقبل مع الصبح كوكب الزهرة، بأم تركته يتيما حزينا، و غابت فى لجة الموت! لقد ظننا - لحظة تلك - ان تعويضا حنونا - باركته به جارية رؤوم أطافوها باسم غزالة، كان يكفيه، و لكن موت الأم شاهزنان كان قد طوق [صفحه ۱۹۸] البيت كله، و بمن فيه، بحزن صبغ السقف و الأرض و الجدران و طال الطفل - من حيث أحد لم يدر - و انسكب فى عينيه، و طوية نفسه. حتى انه كان يمتصه من الثدى الذى كان يرضعه و يحنو عليه... و لقد رافقناه من يثرب - و عمره سنتان - الى الكوفة للتمتع بمعرفة جده الامام على، و للتروض بحنانه، و كنا نعجب - و قتذاك - كيف كان للطفل انجذاب قوى الى حضن جده، من دون أن ندرك أن شبيه الشكل منجذب اليه، فالحزن الذى كان يفيض من نفس الامام فى دوحة عينيه، كان كافيا لتعجيل انجذاب الحفيد المبنى - بالحزن البكر - الى ما بين يدى جده الرائع... و تم عشق متبادل بين الجد و الحفيد - أضحى سببه الآن بهى الظهور - أغرق العلى الصغير بحزن غائر الحدود، عندما شاهد جده محمولا على الأكف، و قد غدر به ذلك الجلف المرادى... و لم يفتنا فى ذلك الحين أن نطرح السؤال على الذات: كيف يمكن طفلا، لم يتجاوز الأربع سنين، أن يتناول مثل هذا النوع من الحزن المركب؟ فالجريمة التى حذفت ركن البيت و ركن الرسالة، انما هى تهديد مخيف، يشمل الواحد منهم تلو الآخر، لأن الخط الأموى يقصد استئصال كل طالبى تجهزه الرسالة لاستلام القيادة. لقد أصبح مثل هذا الهاجس المرير محفورا فى البال، و أصبح التصرف الحاصل على الأرض يشبه واقعا مريرا. ان تجريد الطفل على من هذا الحدس غير مصيب، فالامامة زرع فى نفسه، تعهدته [صفحه ۱۹۹] الرضاعة، و تعهدته العناية الخاصة، و كل لفتات العيون، و ان الامامة ذاتها هى التى تنفذ فعلها فيه، من حيث سيأخذه، ذات التحسب و ذات الوجيف، بواسطة حسه الضمنى، و عقله الباطنى، و هما قوتان منقوشتان فى سليقة الانسان. بهذا الحس الضمنى و العقل الباطنى المجردين من فعل الارادة، تم للعلى الصغير التقاء بعمه الامام الحسن، بعد فراغ مقعد الامامة من الولى الأول - لقد هفا اليه بكليته، لأن الامامة انتقلت اليه، و هو الآن فى المركز المهيأ للدفاع عن الذات، فى سبيل تقرير المصير. و انفتل الحزن فى عين الامام الصغير الى نوع من فرح ولدته الطمأنينة فى البال... و لكن سير الأحداث الى مثل ما انتهت اليه - مما جعل الامام الحسن يخسر المعركة الأساسية، و يخسر قيادة الأمة و لو الى حين موعود به، و مهدد بأكثر من كذب و احتيال - أعاد الحزن ذاته الى نفس على الصغير، و دغمه دغما مريرا بحزنه الأصلى الراسخ فيه. و عادت القافلة من الكوفة الى يثرب، تحمل آل البيت ملفوفين بهواجس الصمت و الترقب. اما الامام الصغير، فان اطار الحزن كان جلبابه الأوحد، يحاول أن يفتت من حروفه و لا يقدر - انه قدره الكبير الحامله الآن الى يثرب. [صفحه ۲۰۰] و كرت الأيام الشاحبة، حاملة معها هموما تكدس الهواجس، من دون أن تلونها بتعلة - فمعاوية المتربع فى الشام فوق كرسى من ذهب، مهد لانتقال العرش الى ابنه يزيد - اما الأمة كلها فأصبحت زمرا زمرا من قبليات تنام من أحضان البطون، و ترقصها هزات القرود. كان يشغل بال معاوية أن يموت قبل الحسن فاذا حصل ذلك - حسب اتفاقية الصلح - فالخلافة تعود الى الامام، و يخسر يزيد ارث أبيه... لهذا أسرع معاوية الى النفاق الذكى، و قضى على الحسن بلعقة عسل، و حول الخلافة كلها الى يزيده الأمثل، ليموت - هو - على مهل، مرتاحا من أى شرط يقلل من روعة الكرسى، و لمعة الذهب. أى شىء أرهب من دخول لص حرم بيتك، فى وضح النهار، فيحملك على مجالسته و الترحيب به، ثم لا تدرى كيف أنامك فى فراشك، و خطف أنفاسك، و سرق مواعين بيتك، ثم قهقه و رحل... هذا هو كل ما حصل فى بيت الحسن: لقد فتحت الباب لمعاوية جعدة بنت الأشعث قريبته من بنى حرب، فدخل و ناولها كوبا من عسل، سقته زوجها الحسن، فنام و لم يقم من غفوته! [صفحه ۲۰۱] و ارتاع الامام الحسين، و اشتعلت الحرائق فى روحه و دمه، و فتش الأرض كلها من حواليه، لعله يجد حساما أبيا - يضرب به باطل الذل و التعدى - لا- يقصف... فوجد الأرض كلها أذل من وتد... و أن النفوس كلها قد ذلت تحت أقدام

العبيد... فمادت الأرض تحت قدميه، و اشرأبت به علياء أخرى، ضربت رأسه فى السقوف العتيقة، فتعلق بها، و راح يشحذ سيفا سله من بين ضلوعه، سيف المجد الذى سيشترى الأمة المذللة كلها من براثن الخفافيش. و انسل هاربا من تحت عينى رجل سفيانى اسمه الوليد بن عتبة - حاكم مدينة يثرب - كان يحاول أن يضمن له سلامة العنق، بمبايعة رجل لخلافة نبى المسلمين، اسمه الأول و الثانى يزيد بن معاوية، و اسمه الثالث سفيانى... يا للمسافات الرخيصة، شطبت اسم الحسين من مدينة يثرب، مدينة النازحين الخالدين و سجلته فى محارم الكعبة، حيث سيعقد مبايعة رفيعة القناطر، لخليفة رأسه فى سماك العز، اما اسمه الحى الأبى القيوم فهو العنفوان. أما على بن الحسين، فانه اندس تحت ابط أبيه، و ذاب فى اريحية ظلة، و سافر معه الى كل الأفياء السخية، بصمت ما عرف أبلغ منه خشوع المتعبدين. و تم شحذ الحسام على التصميم الرفيع، و انسل الامام [صفحه ۲۰۲] الحسين من تحت كلابة عينى حاكم مكة، ذلك الداهية الآخر، عمرو بن العاص توأم معاوية فى الحياكات الملونة النسيج: بالخيط، و المكوك، و الحبك المقعر... اما القافلة المزنرة: بالحريم، و الأطفال، و الموالين الأصفياء المتسلسلين من نعمة الصدق و بحبوحة الاباء، فهى التى اخترقت حدود الرمال، فى سفر معين الرحل، و معين القصد، و معين المآل، فى كل ظاهر يدل عليها بأنها قافلة يحبو بها الرفض الى حفر الموت المصبوغ بدم الشهادة. و ألقت رحلها القافلة المقدسة فى أحضان كربلاء، بابطالها المئة و الثمانين المدججين بسلاح ماض الظبات، تنتصر به كل أمة يطالها ذل البغاء، و تعود- به - الى اعتناق الحق، و اعتناق العز، و اعتناق الرجاء. و تمت مسرحية المأساة فوق خشبة الأرض، قامت بها زمر زمر من العفاريت السود: زنانيرهم سوداء، و جباهم سوداء، واقفيتهم سوداء من كثرة ما احتكوا بحتات الفحم قبل أن يبيضه الرماد، و نعالهم سوداء مسلوخة من عتمة ضمائرهم السوداء... يا للشياطين تملصت منهم نعمة الحق، و نعمة العقل، و نعمة الصلوات... وحده الناجى من تحت النعال، ذلك المطروح مريضا مقعدا فوق بلاس أسود - وحده على بن الحسين - وحده الباقى من بين [صفحه ۲۰۳] الرجال - شاهد التفصيل فى واقع التمثيل، و شاهد النعال تعلو و تهبط فى صدور الرجال، و شاهد السيوف الملتمعة بخفق الدم، كيف يرقصها سفك الدم، و كيف تسكرها حميا الدم، و كيف لا يبريها هدر الدم!!! و شاهد رأس أبيه مشكوكا برأس الرمح - يتغنى به رأس الرمح - و يرقص به رأس الرمح - و ينتصر به رأس الرمح!!! فهب من مرضه الذى ذاب - و جلس على بلاسه الذى ابيض، و حملق عاليا عاليا فوق السحاب، و امتلأ صدره بضمخ السحاب... فأبوه - الآن - هو العالى فوق السحاب... يا للعنفوان المضمخ، يحقق ذاته من تلقاء ذاته، فى اللحظة التى لقمها فيها قطرات دمه. هكذا وعى ابن الحسين حقيقة استحالة أبيه الحسين فأغمض عينيه عن مشاهدة الدم، و راح يرنو الى غد آخر ترى الأمة فيه هزة الرمح المشكوك به رأس الحسين، فترقص بها رماح العز و هى محققة لها مجدا مبنيا من رفض الذل، و مشتقا من عنفوان امام اسمه الحسين. و حان اختتام المسرحية المأساة باخراج منمنم لمشهدين جانبيين أضيفا على شاشات الستار: واحد منهما مرحت به شرفات القصر - قصر الحاكم عبيدالله بن زياد - باطلالاته الوسيعة على ساحات الكوفة - تم فيها عرض أنيق للسبايا المضرجات بدمائهن المستباحة، و فى وسط دائرة منهن رجل قصير حنطه [صفحه ۲۰۴] الذل، و ألبسه ثوبا منقوش الخيطان بغبار الموت، و جعله شبيها بملوك أقزام - يحركهم على لوحة من خشب لاعبو الشطرنج. لقد تمتع - هكذا - ابن زياد بمرأى الانخساف و الانكساف يرفل بهما على بن الحسين. كاد ابن زياد أن يسحب من وريد الأسير كل نقطة دم بقيت فيه تسرح... و لكن مهابة أنيقة شعت من حجة هذا الذليل، جعلته ينفك عن ورمه، و يلف الفتى الهزيل بحزمة السبايا، و يبعث بهن الى الشام فلا يفوت الخليفة يزيد بن معاوية تنعم بمرأى الذل فى مشهد جانبى يضحك و لا يبكى، و تقر به عين قبل أن تتغمض على حرير الوسادة. و جاء دور المشهد الثانى - فى زواريب الشام - و أمام قصر الخليفة، و تحت عيون أفواج المتفرجين - صحيح أنها ضلوع المهزلة، و لطالما هرج بمثلها «قيس» يزيد، و لكنها الآن مهزلة ترنقت بالعبر. فالامام المهرج به امام الناس فى الشوارع، و تحت عين الخليفة فى باحة القصر، هو المتسربل الآن بمهابات جليلة البزوغ: من جبينه، و عينيه، و صفقات يديه، و حتى من اطلالة قده القصير الناحل المعبر عن طاقات فيه لا تزال فى أختامها مستورة، و لكنها تبدو - فى ظلها المقهور - هديرا من موج تسكت به أعماق أليم. كل ذلك قد لملمته عين الفجيعة من خوابى الفجيعة، فاذا [صفحه ۲۰۵] هو احتكاك بمعادن الذات، فجره الحزن على مكامن

الحزن فى خبايا الذات، و استحال به الى عنفوان يرفض الحزن يكبل النفس بذل و يبعدها عن الفرح الذى هو لها فى بهجة الصدق، و بهجة النور. ان العنفوان الذى فجره الحسين من مكامنه الرفيعة، يأبى أن يعرقله الحزن و يسد به الأبواب. لهذا كان يشدد على ابنه الصغير على، أن لا يخضع كثيرا لسلطان الحزن من دون أن يفتته من حروفه الذليلة، و يرفضه رضوخا لذل يكبل به طاقات النفس، و يمنع عنها أشعة النور و أفراح الحياة. فى اللحظة ذاتها التى شاهد فيها رأس أبيه مشكوكا برأس رمح، تذكر أباه كم كان يلح عليه برفض الحزن جرذا يقرض قمصان الفرح و أوشحة المجد. و هو هو - برأسه المحزوز - يحقق الشهادة للعز المنيع، و يرفض ذلا تقوم به جوقة الجرذان. اما الجرذان التى أنهكت قميصه، فهى التى تقر له بالغلبة المثلى، و ترفعه عاليا فوق السحاب، حتى تراه - دائما - أجيال الأمة فى بعثها الصحيح و رؤياها المجيدة. هذا هو بعض مما لملمه من خيوط اللمح هذا المهرج به فى الكوفة، و المهرج به فى الشام - لقد غرف العنفوان من دوحة العنفوان، و بدلا من أن يذله الحزن، راح يعززه الحزن، و يوقره الحزن: فهو البطل ابن أبيه، ينوف به الصدق، و ينوف به النبل، و الحق، و الايمان الكبير، و هو لحمة أبيه، و عمه، و جده، و نبيه الرسول فأى شىء من تفاهات التراب يذلله، و يسحقه بالحزن [صفحه ۲۰۶] تحت أظافر الجرذان. بهذا الجبروت الذى تسربل به الامام ابن الحسين، تملك و قار الناس له، لا- لانه فتش عن ثوب يلبسه فيتهيب به، بل لانه انتفض من حزن ذليل، فاذا به - فى قماشة عريه - يبان فى قميص و شمه به النقش الطريف. هكذا انصبت مهابته فى حفيظة ابن زياد، فعفا عنه من حيث لم يرد أن يعرف لماذا عفا... و هكذا انفتل الميزان عند ابن معاوية: من تهريج مقصود، و تشهير ببقية حقيرة من ولد الحسين، الى خشوع ملقح بالوقار، و اذا به ينيله عفوا غنيا، من حيث لم يقدر أن يغرقه تحت موجات الجفاء... لقد رأينا كيف دبر له قافلة مدبجة بخيول عريقة، كان قائدها رجل مرموق فى بطانة العرش، و لا يزال عليه قميص مزخرف من قمصان عثمان... ألا قليبل الدهر قبل أن يبلى قميص عثمان! و سار كذلك قائد القافلة - النعمان بن بشير - ناسيا انه حامل قميصا أغرق الأمة كلها ببحر من دم - أوصل العائد الى مدينة يثرب، ثم عاد الى الشام، ناسيا أيضا انه مأخوذ بمهابة رجل يقدس قيمة الحق!!! لو تعقل بالبشير مهابة الحق، لمزق قميصه الموروث، و بقى فى عريه فى يثرب، مع الرجل الذى كساه بقميص الحق. [صفحه ۲۰۷]

و فى يثرب

و التمت كل خطوات الرجل فى يثرب - الخطوات التى مشاها فوق دروب من تراب، و الخطوات التى مشاها فوق دروب من رحاب. انها الآن فى المخزون النفيس، لقد أصبحت جميعها منقوشة فى اللوحة المتينة، يفصل منها أزياء قمصانه، ليلبسها فى كل عرض تتأنق به ليلة العيد. بضع خطوات لم يمشها بعد، سينهض اليها لتتميم مشيئة الأقدار، آخذا منها لونا جديدا يصبغ بها نعله فوق الطريق. لم يبرح مدينة يثرب بعد رجوع القافلة اليها من أزفة الشام، الا مرة فى كل سنة للقيام بفريضة الحج، و التبرك بالرمز الموشح به حجر الكعبة. اما زيارة الكوفة - حيث يسجد مليا سجدة الحق، جده الأمثل، و أبوه الغافى فوق نصلة الرمح - فانه كان ينخطف اليها، فى بعض غفلات السنين، فى عب عتمات نادبات، فيصل الكوفة ليهرق دمعه، و كل زفرات روحه، فوق مرقدين لم ييبس فوقهما جفن التراب... ثم يعود محمولا على صلوات تنسيه مشقات الطريق، و لا بد من انه سيسكبها أناشيد فى صحائفه المفتوحة فى بيته المعزول فى يثرب. [صفحه ۲۰۸] فى هذا البيت الغافى تحت سقف وضيع، كانت تتم حياكات على نول منيع: سداها كل مدود النفس مما حوشت من ثقل السنين، فى نقش محفور فوق ألواح الطوية، و على بسطات الظنون، و لحمتها كل ما قامت به الاظلال من و شى مطرز باللون، و العمق، و البث المدقوق على أوتار المشاعر، و المنسول من الخبايا الغائرة فى دوحات الحنين... انها حياكات نول، كل ما فيه مكوك أنيق يلقطه العقل و خفق اللب، و لا يشد به الا الاستعراض الفسيح، ليكون للاستعراض رشاقة الاخراج فى قماشة منسوجة تشهد انها و شاح لمن أخذت من سداه و من لحمته حبكة الوشاح. كيف لنا أن لا- نرافق الامام فى استعراضاته المشبعة بالحنين الممتاز؟ انه وحده النازل فى هذا البيت الباقى له فى يثرب - انه وحده العائد من مجزرة أرادوها لأبيه مقبرة بينما صاغها - أبوه -

ملحمة هى الياذته فى شعاع البقاء... من أبيه بدأ الاستقطاب... بدأ من الساعات الأخيرة التى ألف هو - أبوه - ثوانيها الباهرات. منذ أن خر جده الامام صريعا فى ساحة المسجد، بدأ أبوه يهزأ بساعات القدر، و يتهمه بخنوع الذات، و أن لا بد من تصميم آخر يقلل من قبول معادلاته... و لما اضطر الامام الحسن لاقتبال الصلح الأبيض مع معاوية بشروط كان لا بد منها، كان الحسين [صفحه ۲۰۹] يضرب سقف البيت برأسه و هو يقول: - تبأ لقدر يمنع عنا السماء بسقف لا يذوب تحت دفعة النور! و لكن اختناق أخيه الحسن غريقا فى كوب من عسل، جعله يجبل الأرض بقدر مخبول، و هو يقول: - أية قيمة لك يا أرض - يقعدك العار، و لا ينهضك شوق النار؟ و دثار العار - ان لم تطهره النار - حيف، و ذل، و شنار! لقد ظنوا أن صوت الحسين قرعة ذابت فى رمال كربلاء... لا... يقول الامام الناجى من حريق كربلاء: - ان النفس النازلة من صلب حدى فى امتصاصه قبس الرسول، هى التى اكتشف الحسين مداها... سيعيشى مع الأجيال صداها... أين أنت يا كربلاء؟ فتتتنى حزنا مديدا... و أنا لا أستعجلك تجبلينى من جديد.. فالحزن الذى لم يردنى أبى أتمادى فيه، بل أن أعريه من قمصانه السود - أحبه الآن قدرا لى - أتمتع به دمعا لذيذا، و ذكرا لذيذا... الى أن يكتمل شوطى... و عندئذ أستبدله بكآبة لا- أظنها أخت الحزن، بل هى شفيف منه، يتغلف بها حنين الروح! [صفحه ۲۱۰] صدق أبى: ان الحزن هو التفل... اما الكآبة فهى عصارته الباقية باسم الحنين. اذا كان للحزن غزارة يكتب بها قرون الحروف... فيا ما أجل الكآبة من نتاجه! لقد غرق الامام طويلا فى مثل هذه المناجيات، و لكنها بقيت حدودا صغيرة أمام ما يريد تلمسه فى قعور الذات من تفهم القضايا الكبيرة التى تنسج فى النفس نسجها المبدع، و تنتقل بها الى ارادات تصنع المشيئات، و تسجل العناوين فى دواوين التصرف بشؤون الانسان البانى أمة الحق فى عوالم الأرض، ليكون له ميراث منزه من أحزان الباطل النازح من جحيم الجهل، و الكفر، و معرة الشيطان. فى كل يوم و فى كل حين، كان يتم له اختمار رائع التأمل، يسبغ عليه لذة فى الروح، يقوم و يسجد بها فى الخلوة الخاشعة، دلالة شكر على استنارة تطلع عليه من خبيئة نقشت فيه، يتم له بها كشوفات ثمينة تضىء نهجا ثمينا. هب من نومه ذات يوم، و فى عينيه اغفاءة تكشحها كآبة قال: - بدأت أعرف بأى ماء غسلت، منذ أن ولدت الى أن عضنى ذل كربلاء - تسلسلى على يا ثوانى العمر، كم نالك فيها من سكب [صفحه ۲۱۱] خصيب، رخت به على عين الحسين... و أغمض عينيه تحت ظل من سكون... و تراءت أمامه امرأة فى قد نحيل - تظللها غمامات وسيعة - يوشحها حزن - و يرشقها نور... طرفته بعينيها و ذابت فوق طيات النعيم... و فتح الامام عينيه الى سماء منيرة، ثم تمتم بالصلاة: - عرفتك يا أم على... يا طالما رأيتك تخطرين بروحك القدوس فى عين أبى المدعوكة بالدم!!! أتظنيننى لم أشعر بك نازلة فى صدر غزالة المتوسع بك حبا حميما؟ يا للاسلام العظيم... لا تحسبى اننى لم ألمح - لقد حفرتك عين أبى فى أعماق روحى حفرها الأبلغ... و لا- تحسبى أن جدى الامام لم يحفرك فى بالى حفره الأروع - كلاهما حفراك بأزميل النور يا ابنة الجوار المفتوح بنور الرسالة... انها الرسالة جدى، و كم انها باهرة خلصتك من ذل الأسر، و ضمتك فارسية - ايرانية من مدارج الملوك، الى عربى طالبى من مدارج بنى قحطان - يا للصلات بين الأمم، تربطها المثل الكريمة و الكبيرة، صدرا الى صدر، و باعا الى باع، فى ظل احترام الانسان للانسان، على بحبوحة الحق و بحبوحة الايمان... و ها [صفحه ۲۱۲] أنا الآن - يا أمى - ابن خيرتين: فارسية و عربية، تشهدان للرسالة بانها مدى الخير الوسيع الذى يبشر بان الانسان أخو الانسان... أظنك فهمت ذلك مليا يا أمى قبل أن تخطفك - الى فوق - ولادة الامام. و نزلت الكلمة - الامام - كأنها الهابطة من علياء، تسرح فيها الآن أمه خلف مدارج الجوزاء، و استقرت فى اذنه التى تتجسد فيها محامل الأصوات: - و ما هى الامامة فى مدلولها المطلق؟ أليست و عاء تسكب فيه مهابط البعث فى ايحائه المطلق؟ أليست اطارا تنضبط فيه المناهج فى تحسبها المطلق؟ أليست هى ذاتها الرسالة فى وعيها المطلق؟ ترى البعد بعينها الصغيرة و تلمح مداه فى شأوه المطلق!!! لا لعمرى انها حياكة جدى النب بمكوك ربه المطلق. ليس للأمة غير أن تبقى فى حضن ربها المطلق. قصية جدا مرامى جديد فى دستور الحياة، [صفحه ۲۱۳] و ترتيب الامامة هو أقدس ما انخط على نول العناية و الصيانة، فى سبيل أمة بناها الحق حتى تدوم ناجية من خيباتها الطويلة... الأمة وحدها هى الخاطر العظيم المالىء بال محمد، و الانسان العظيم هو البانى أمة يخلد بها فكر محمد، و محمد هو وحده الرجل العظيم الزاهى بقيمة الانسان، و لولا نهجه فى التوحيد لانفرطت مجتمعية

الانسان، و خيمت عليها - بالتالى - عجموية الحيوان. و تهلل خاطر الامام بقتينه من معنى الامامة... و سريعا ما قام و انزلق من بوابة الدار... و راح يسجد و يقبل الأرض بركعة و ركعة تحت كل نخلة من نخيلات بستانه البالغة خمس مئة... ألف ركعة كان يركع كل يوم، شكرا لربه و ذكرا لنبيه الذى أولاه شرف الامامة... اما أبوه الحسين فكان يوجه لايه كل يوم ركعتين: - ايه يا أبى العظيم، فأنا ما وعيت ذاتى الا تحت ناظريك. لقد سبكتنى سبكا بالامامة، و حليتنى لها بشوقك المفعم، حتى انى أخذتها رضاعا من صدر أمى غزالة، و من عينيها المغزولتين ارتشفتها انهمارا، كأنها كانت تلبى مشيئتك أنت فى السجود تحت طاقة المحراب... لقد أشبعت الجو حولى [صفحه ۲۱۴] يا أبى بكل ما كان يخشعنى تحت طاقة المحراب... فأنت عزمى، و أنت مثالى فى مجتنى روحى، و أنت سيد فى جنان مخزونة للأمة، ستبلغها الأمة - عندما يتحقق بها صدق الرهان. لقد بدأت تطيب الأدعية خارجة من الصدر الأمين المنقوش بنعمة الرضوان. هكذا الغيث فى استجماع ذاته، كلما تكثفت به مطاوى الغمام... و هكذا - ركعة فوق ركعة - كانت تتطيب الصلوات المكتوبة فوق لوحة الوجدان، كأنها قراءات الروح فى مهابة الرحمن. و لكن السجود على هذا المنوال قد طال: أطاله الحزن، و مد به التذكار المدبوغ بفظاعات كربلاء، فى ظل حكم لا يعرف معنى السجود و لا يبالى بقيمة الصلوات... أين هى الأمة الموعودة بمخزون الجنان؟ راح - فى استغراق - يسأل: - هل اذا تماديت أنا فى سجودى، أو اذا أنا ذبت فى صلواتى الضامرات - تتمتع الأمة بمخزون الجنان؟ و لكن الأمة بالذات - ما لم تقم - هى - بتدبيج الصلوات، لا تستقيم لها خيرات الحياة... لن يكون مخزون الجنان الا لمن يسعى اليه بالشوق البهى... يا ضعف سجودى، و يا ضعف صلاتى، لم [صفحه ۲۱۵] ينجيا الأمة من ذلها، و لم يفكا عنها نعال العبيد. و أطرق عميقا يستنجد ذاته على ذاته، كأنه يفتش عن ذنب قد اقترفه و لم يتبرأ منه بعد... و انبرت له صورتان صغيرتان فى حدود الذات، و أخذتا تكبران و تتجسدان أيضا أمام عينيه فى حدود الذات، كان ذلك فى ساعة أغرقته طويلا فى سجود حزين، و لكنه لم يعد من غيبوبته تلك حتى لمح أحد أبنائه ساجدا قربه فى حالة انتظار. فابتهج به و هو يقول له: الأب: هل لك من طلب يا ابنى البيه لك؟ الابن: ابت... لم هذا الدؤوب؟ الأب: أى دؤوب تعنى يا ابنى؟ ألا ترانى أتحبب الى ربى؟ و بكى الابن و انسحب، كأن طلبه الى أبيه - من تخفيف المضنيات عنه - قد خاب. أما الامام الآن - و قد ارتسمت فى باله صورة ابنه ملتمسا منه تخفيف و طأة تضنى أكثر مما تجدى - فانه استقام فى جلوسه و هو فى تمام الاقتناع: - أعذرنى يا ابنى، فأنا ما سددت اليك - فى الأمس - جواب الحق... أنت مصيب فى سؤالك: «لم هذا الدؤوب؟»... و الحقيقة انه دؤوب بحد ذاته مهدور... انه ركوع فى [صفحه ۲۱۶] الزوايا... تخفيه الزوايا... و لا تبديه المرايا... على المرايا أن تفسر معنى السجود لا شكل السجود... و شكل السجود هو المظهر الخفيف المتمكن منه الساجد، أكان نائما فوق بلاس، أو مسافرا على ظهر ناقة - اما المعنى فهو المدى المطلوب أن تراه الأمة فى فعل السجود و اقامة الصلاة... على أن أسجد أمام الأمة، و عن الأمة، لا عنى أنا بالذات - و أن أصلى عن الأمة، و فى سمع الأمة، لا عنى، و لا فى مسمعى المسدود... فلأسجد أمامها حتى أعلمها حنوات السجود... و لأصلى أمامها بصوتى العالى حتى تسمع و تتعلم كيف تحفر فى نفسها حروف الصلاة... يا قيمة يا ابنى لهذا الدؤوب، ان لم يكن من أجل الأمة هذا الدؤوب... تماما كما فعل جدك الحسين: فانه جسد العنفوان تحت عين الأمة، فى عيان الشمس - و فى ملأ الفضاء - و لم يجعله انتحارا و انهدارا، فى عتمة الزوايا أو حفر الخفاء! أصبت يا ابنى، أصبت فى ما قصدت... و راح الامام ينتظر بروز الصورة الثانية على باله الحزين... [صفحه ۲۱۷] و تراءى له الصحابى الكبير جابر بن عبدالله الأنصارى، صاحب الرسول. لقد وفد عليه - ذات مرة - و هو غارق فى صلاة مديدة... فانتظره واقفا حتى انتهى منها. و عندئذ قال له: جابر: «يا ابن رسول الله، اما علمت ان الله تعالى انما خلق الجنة لكم و لمن أحبكم؟ فما هذا الجهد الذى كلفته نفسك؟». الامام: «يا صاحب رسول الله، اما عملت أن جدى رسول الله، قد فعل أكثر من ذلك؟». جابر: «البقيا على نفسك - فانك من أسرة بهم يستدفع البلاء، و بهم تستكشف الأدواء». و التفت الامام الى ذاته و كأنه يرى امامه الأنصارى العظيم، فرد اليه الجواب: - صدقت يا صاحب الرسول. أنا لم ألمح، فى تلك اللحظة التى كانت تقوقعنى بالحزن، ما كنت تقصد بتوسلاتك... لقد كنت تطلب فعلا - أن أوفر قوتى و أحفظها لمجابهة الأتعاب، من أجل الأمة و تحضيرها لأيام المآب، و تخليصها من الأعباء و الأوصاب، للنهوض

بها من تحت المحن... فأنا لست بحاجة الى صلاة تنيلنى السماء، فانى من بيت طهرته الصلاة من أى رجس... اما [صفحه ۲۱۸] صلاتى فلتكن من أجل أن تتطهر الأمة من أرجاس يغرقها فيها رجس الآثمين المعكرين الماء، و الصفو، و جنان الحق الموعودة بها أمة محمد. انها اللحظة المستنيرة المهتدية الى حقيقة الذات - هزتها دفقة رشيدة من دفقات الوعى المجرد - سحبتها من عتمة حزن ذليل عتم النفس و ضيق عليها مجالات التعبد، و حقيقة التشهد، و أفراح الصلاة... انها عمق الهداية للمهتدين و صحة الايمان للمؤمنين، و رجاء السجود للساجدين، و صدق الوعد للمتعبدين المتصبرين الموعودين... فى هذه اللحظة المستنيرة - بالذات - تنور سقف غرفة هو فيها الامام يصلى، و اذا بأبيه الحسين يملأ المكان ببهاء عينيه... فنهض الامام و ارتفع خفيفا نحوه... و راح من عمق الصمت يهلهل فى حضرته هذا الكشف الرصين: - طالما زعزعنى الحزن عليك... و لطالما حاولت أن أبريه... و لم أرد - لأنى اعتبرته مسربا اليك... و الحقيقة أن الفرح، لا الحزن، يوسع الدرب اليك... فأنت ما أقدمت على البذل النفيس، الا تشهيرا بالذل الخسيس الذى يقضى على فرح الحياة و يحرم النفس من الابتهاج. [صفحه ۲۱۹] - كثيرا ما أتذكرك يا أبى - و أنا طفل لم أكن قد وعيت بعد أبعادك - تقترح على أن لا أحترم الحزن، و أن أعريه من حروفه - لأن حروف اسمه سوداء، فهو كالجرذ يقرض قمصان الحياة و يجردها من ذاتها النديه... و الآن فهمت ما تقصد: فالذل الذى يسببه الجهل، و الحقد، و الطغيان، هو الذى يلفلفنا بالحزن، مبعدا عنا مطارف الفرح... ان محو الجهل، و تحضير النفس للانتفاض على البغض و الكفران، هى كلها الكفيلة بالانتصار و استرجاع الفرح الى مناديله الزاهية - و عندئذ، هى الأمة فى خطها الواعى و حقها الشبعان... الأمة - دائما - هى صورة الانسان فى مجتمع الانسان، انها أمة جدى الامام - و أمتنا نحن جميعا، فى رسالة جدنا العظيم، و علينا نحن أن نخلصها من جهل يضعفها و يعرضها لمقاضم الجرذان. - منذ هذه اللحظة يا أبى قررت أن أمسح الحزن بكآبة حلوة لا تخلو من فرح قنوع... و عزمت على أن أنقل سجودى و صلاتى من مخدعى المعتم الى فسحات العراء، حيث أفتح مدرسة تعلم الناس كيفية السجود، [صفحه ۲۲۰] و نوعية الصلاة... سأضبط سجودى فى عب الحروف، و أعلن صلواتى فى حبر الكلمات. حتى ترانى الأمة و تتعلم، و تسمعنى الأمة و تتفهم... و لن تكون لى - أنا - عمليات السجود و لا تنوعات الصلاة... فليكن لكل واحد سجود خاص يحفظه عنى، و يتلذذ به فى محنة نفسه - و لتكن لكل فرد صلاة يأخذها من رأس قلمى، تعبر عن موجدة روحه - و الله هو الكريم فى يقظة كل ضمير، و واحة كل مشتاق، يلبى نداء الوعى فى النفس، و يغطى الشوق بفسحات الرجاء... و لن أصلى بعد الآن لنفسى حصولا على عطاء - فان الله شرفنى بالعطاء - ولكن الأمة كلها هى الأحوج للعطاء، حتى يستفيض عليها - فى غدها المقبل - كل الجمال و كل السخاء. و لم يسكت الامام الا و هو ينتظر من أبيه ردات الرضى، أو ردات أخرى تخفف من وجيف الذات. و لقد لباه رضوان أبيه و أملى عليه هذا المقال: - أنت على صواب يا ابنى، تكمل ذاتك بوجيف ذاتك... من منا لم يكن هكذا فى تقلبات الوجيف؟... غير انك اكتملت. - انى أبارك لك اهتمامك بالأمة، فلو لا [صفحه ۲۲۱] الأمة لما هبط جدنا من غمام و ارتفع فوق غمام - و لما ذاق أبى الامام طعم المجد منخوسا بشفرة سيف... و لما تحجر الدم فى وريد عمك الحسن بلعقة سم... و لما شربت أنا كأس الفرح يغدقه على أحقر الناس... - الجهل فى الأمة و شلل اليقظات فيها، هو الذى خدرنا و عجل علينا خطوات الرحيل - ما عدا ذلك فاننا ما حرمنا بهجات الجنان، لأننا و فينا ذمة الحق فينا، و قسطناه ردودا منوعة الآذان. - لا تقل يا ابنى: ان جهد الخير فينا لم يؤت المجتمع من نضج الثمر - فليكن اليوم على ابتسار - و لكنه سيكون، فى نهار آخر، على نضج ثان فيه الكثير من طعم الشمس، و فيه اللذيذ من انداء السحر... اننا الخميرة، و اننا لا نقدم الا فعل الخمائر، فى نقل الأمة من واقع خفيف النظر الى واقع جديد البصر، تحقق الأمة فيه نقلتها الأمينة. - بالأمس - يا ابنى - قدمت عنقى لسيوف المجرمين، معلنا مجد العنفوان، مضفيا على الأمة رؤية رفض الهوان، حتى تتعلم - بالعيان [صفحه ۲۲۲] - كيف أن الذل يقصف، و كيف أن دم الانسان الأبى يقوى فى وعى الذات على دحر الهوان... و تلك هى أعز سبل الانسان، يجترحها العنفوان، و يغنيها الكرم الصحيح المفتقر اليه مجتمع الانسان. - و تجاوب و عى الناس معى - و لو وعيا جهيضا - فى مدينتنا يثرب، و لقد شاهدت أنت بأم العين واقعة «الحرة»... انها جاءت على ذكرى، رفضا كرفضى، و اباء من نوع ابائى... فلتباركها الأيام، لأنها هزمت

مثلما أنا هزمت، و ديس فيها المسجد بنعال خيول مسلم بن عقبة!!! كما ديس بدنى فى كربلاء بنعال خيول عبيدالله بن زياد. - لا تيأس يـا ابنى، و لاـ تسـمحن للحزن بـأن يسـتبد بلبك... فثورة الثوابين فى الكوفـة كانت امتـدادا لثورة الحرة، و لقـد هزمت أيضا، بعـد أهبة أخـذت من الوقت أربع سـنين... فليستشـهد الأبطـال فيـا، مثلمـا استشـهد شـيخنا الأبى سـليمان بن أبى صـرد فى عين الوردة من أرض النخيلـة.... و ليقتـل معه المسـيب بن نجبـة، و عبـدالله بن سـعد... و لينم عـدد الشـهداء، كمـا ينمو المن فى لوعـة الصـحراء... انها نعمة العنفوان، تهبط فى [صـفحه ۲۲۳] أرض التيه و تفرز شوكـة مباركـة الزهرة فى عطرها البكر... - انها الشوكـة المباركـة يا ابنى الكبير، غمرت بعطرها المختار بن يوسف الثقفى، فى ثورة مقدسـة الجوانب، لها جـذر يعيش عميقا فى تربـة الحرة، و جذر مبلول بخطيئة ندم عليها فى الكوفة رهط التوابين.... اما الجذور الأخرى التى لا تزال هاجعة فى الأرض، فانها فى انتظار أن يذوب الريب من جيوب الدم، و أن تتصفى الأنفاس من عفن بثه الكيد، و الجهل، و العار فى مجارى الريح، و لا تزال مخدرة به تلك الضمائر. - لم يكن بد للمختار من أن يتناول شـريط النار الا من فتائل النار، ذلك كان حظه التاعس من أخـذ الثأر، و كما حز رؤوسـنا شـمر بن ذى الجوشن بمقدرة العبيـد بن زياد، حز المختار رأس ابن ذى الجوشن، و رأس العبيـد بن ذى الزياد، لتكون للثأر رقصة الثأر فى مواسم القبائل... فلا تفرح يا ابنى الامام الا قليلا قليلا فى بهجة العرس، و انشـر التهليل فى حروف الصـلاة المعلنة على آذان العباد، حتى تتنجى الأمة من تسلسـل الأثار، و تغـدو وحـدة متيمـة بالحق، و العـدل، و بهجات [صـفحه ۲۲۴] العنفوان... فلاـ يقعـدها عن المجـد ذل أسود، و لاـ يثنيها عن الطريق عثـار... و انهـا - ساعـة تلـك - فى حضن نبيها العليم العظيم، و تكون فى حقيقـة مشـتهى جـدك العلى النبراس و المتراس، و تكون بأجمعهـا جوابـة فى حقول الظن المرويـة بالعلم، و الفهم، و الوعى، و اليقين. - طوباك يا ابنى الامام المتكامل بنقوش التراب... تقطع الصـلوات من مهجـة السـر، و تطبعهـا فى قوالب الحروف - فيهـا العلم و التعليم، و فيهـا الحق للنشـر، و فيهـا الرشـد و كـل آيات البيـان... انـك هكـذا تعبىء المسافات بثقل المسافات، و تجسـد العنفوان بأضواء العنفوان، و تملأ الأنابيب بالمـدخرات المعتقات. فاذا كنت هكـذا - مثقلا بهـذه الطيبات - فلا تسأل كيف لن تفرغ أنابيبك من عطاياك؟... ان الزمان طويل فى عمر الأمـة... و عطايانا من نوع الخمائر... كلما مستها حفنات الطحين، تخمرت بسـرها حفنات الطحين... أذكر جدك الباقى فى خزائن الأرض - انه هذا الصنف من الخمائر. و أسـمعه يقول: للباطل ساعـة، اما الحق فلقيام الساعـة... انه هو الذى باركك فى الكوفة [صـفحه ۲۲۵] قبل أن يرحل، و لقـد قرأك فى جبينـك و عينيـك، و قـال لى: سـيكون فتاك هـذا يا حسـين - زين‌العابـدين - عنـدما سـكت الحسـين - ربض الامام زين‌العابـدين على الأرض - تناول سـكينا برى به غزارة بين يديه - غمسـها بالحبر - و راح يخط على لوح أبيض كان بالقرب منه... يا للصحائف بين يديه... كيف بالحبر ستسود... أتكون صحائفه قناديل فى قبب المآذن؟ [صفحه ۲۳۱]

زين‌العابدين

اشاره

لقد ذاب على بن الحسـين فى الصـفة التى نعتته - و منذ اللحظة تلك ابتلع أفعل التفضـيل اسم مولاه، و أصـبحت صـيغة الاسم الجديد قائمـة بذاتها - اما على بن الحسـين، فلنفتش عنه فى كربلاء، و عند عبيدالله بن زياد، أو عند يزيد بن معاوية، أو - اذا عز بنا التفتيش - خلف عتبات صامتة، حيث يسجد كل يوم ألف سجدة، من دون أن نبقى له اضبارة من وقت ينصرف فيها لمعالجة شؤون الناس، و هو القيم على امامـة لاـ تسـتقيم ضـلوعها الا اهتماما بشؤون الناس. لا - يا أيها المحصـى على الامام عـدد السـجدات - هنالك أيام طويلة موصول بعضها ببعض، لا ينفصل فيها ليل عن نهار، قضاها الامام فى حالة سجود كأنه الاغماء المتواصل، رمته فيها فظاعة الجريمة التى مثلت تحت عينيه: عملية حز رأس أبيه و شكه برأس الرمح، و الرقص به كأنه دمية من دمى الأطفال - و عملية الهمجية فى عرك بدنه المطهر، بنعـال البغـال و نعـال الأنـذال. كان الحزن العتى يرمى الامام فى السـجدة العتيـة التى لا ثوانى لها تفصل الليل عن النهار... انها

السجدة العتية - كما [صفحه ۲۳۲] رأيت - و هى الدهر كله فى مجالات الامام، أفرده ساجدا، لا ألف سجدة - يوميا - تحصيها يبوسة الأرقام، بل سجدة واحدة بمعناها الفخم، دغمت مفاصل جسمه بروحه، و صاغته فريدا فى السجود العالى الموحد. عندما تمت سيطرة العقل و سيطرة الروح على الحزن، و تم تفكيك عرى قمصانه السوداء، نقل الامام الركوع من ركبتيه الحزينتين المعفرتين بالتراب، الى علاء جبينه الغائر فى السحاب... ثم تناول قلمه الراسخ فى معطيات الروح، و راح يسجل السجود - بمعناه الرفيع - أمام الناس على صفحة القرطاس، حتى يعلم الناس، كل واحد بمفرده من صفوف الناس، صلاة يبدع بها ذاته، و يخلص ركبتيه من سجود العبيد، و يرفع جبينه الى شموخ محرر من ذل العبيد. تلك هى اللحظة الكبيرة - لحظة نقل الصلاة من عب المصلى، الى أعباب العلاء - لحظة جعل الركبتين تحسان انهما - و هما تلمسان التراب - تشربان السحاب. لقد ابتدع الامام اللحظة الكبيرة هذه، و قررها نهجا من النهوج الفاعلة فى حياة الأمة التى ينقصها العلم الصحيح، و الفهم الصحيح... منذ زمن قد طال - أفلتت من أيدى الأئمة سياسة الأمة، و اضحت بين أيد لا- يهمها من أمر الشاة غير امتصاص ضرعها، و جز صوفها، و مص دم فصيلها، ثم الفتك بها فى ساعات [صفحه ۲۳۳] العربدات... ان القصور فى الشام، بين يدى يزيد بن معاوية، تشهد للسيادة العاهرة المطلية بحميا الخمور، و ألوان التهتك و الفجور... اما الأمة المجردة من أوليائها، فهى التى ترقص هناك - وحدها - بفقرها، و جهلها، و عريها، و قبلياتها المفككات. من للأم النقية - غير ابنها الصحيح - يتولى أمرها و يحميها من الضيم؟ و الامامة المشتقة من صدر الأم - لغة، و شوقا، و صدقا، و حسا أصيلا - هى بنت الرسالة المؤمنة و المقتنعة بايمانها بأن الأمة - وحدها - هى ملاذ الانسان، و خلود الله فى الانسان... و لن تخلد أمة على وجه الأرض اذا تملص الله منها... انها - ساعتئذ - أرض يباب، و خراب خراب - ان الله باقة المثل، و ان كذبة واحدة، تأكلها الأمة - تشتتها على وجه الأرض شذرا شذرا - انها هكذا تبددت قبيلة اليهود، تتملك الله - بالكذب، و الحقد، و الرياء - قبيلة اليهود. ان اللحظة التى تناول الامام فيها قلما و راح يجره على لوحة القرطاس، هى التى قفزت به الى قدسية العبادة، و قدسية الابداع. ان الجوهر المتحومل فى جهاز الامام على بن الحسين، بدأ الآن يتفجر من مجاريه... اما سجوده الكبير، و صلواته العريقة، فانه وظفها كلها فى مهماتها الجليلة، بنقلها من مسارب الذات، الى بحبوحة الدائرة الوسيعة الشاملة قضايا أمة بأسرها، تمتد من الساعة، الى قيام الساعة، فى عمرها المديد - فالأمة خلود كما يشاء الفهم المطلق - و رسالة جده النبى هى خلود فى شأوها [صفحه ۲۳۴] المطلق - و امامته المرتبطة بجده الامام على، هى امتداد الخط المطلق - اما المهمة فهى بذل أنيق متواصل، فى سبيل أمة تحرمها السياسة من عناية الأولياء. أما التعويض فهو الملىء بالوشى العفيف، يأخذه بعينه، و سمعه، و لبه، كل فرد من أفراد الأمة: أكان صغيرا أم كبيرا - ذا شأن أم و ضيعا - حاكما حليما أم ظالما غشوما - صديقا للأمة و دودا، أم عدوا لدودا... كل ما يتعلق بشأن الأمة أصابه بسهم، و علم، و فهم، و نصيحة... و هكذا - باسم السجود، و باسم الصلاة - سجد عن الأمة كلها، و صلى لها، و هو يعلمها السجود، و يعلمها الصلاة... اما الكلمات فهى مرصوفة رصفا أنيقا، كأنها من نهج البلاغة منتقاة - يزينها الرصف، و يزينها البيان، و يمرح بها الحق، و تغفو فيها عفة الجنان، و ترقص بها موسيقى، كأنها نغم الوجد، أو لوعة الوجدان - اما الصدق فيها، فليس له الى الخيال مجال، بل الى التحلى به تقديم المثال... تلك هى كلماته فى صحائفه البيض، و فى تعريفه الأبيض عن الحقوق و الموجبات. و تلك هى القيمة الجليلة التى حولت الصلاة معه من تقليد الى تنضيد، و من نهج ضيق الى رهج رشيق، و من مسارب الذات لى مفاسح الذات... فى تلاعب فنى أدبى، يحمل الرمز من مسلسل الرمز، و يوشى به عاتق الميزان - انه الأدب الرفيع فى ساحاته البليغة، يسحب الكلمة من مغالقها الأنيقة، كأنه القيم فى توسيع الحروف، و زرع المعانى فى مفاصلها الرشيقة - كأنه الوريث [صفحه ۲۳۵] الأمين لأجهزة الضبط فى خزائن الارث المليئة بعقود الجوهر - كأنه المتخطى درجات الفكر فى الزمان و فى المكان - كأنه وصلة عصر قديم كان زاهيا بالعلم، و الدرس، و الكشف عن جوهر الانسان، ينقل عنه و منه الايمان بالله الباسط ظله فوق اللابدايات و اللانهايات، و خلف المجردات العتيقة، و خلف أى مكان و أى زمان - كأنه اولى المسؤول عن أمة لها يوم أول فى تذوق الحق، و ليس لها غد ينئها عن راحة الرحمان... انها الأمة العظيمة، أمة جده العظيم، و هى المتربعة فى حقول الطيب، و ليس لها أن تغيب من بال الزمان، الا أن تتعدى حدود المكان، و تنشر الطيب على أمم الأرض، و

تجنى السلام مربوطا بحبال الوثام... تلك هى مهماته الكبيرة، طالت بها قامته الصغيرة، و استراحت مزاياه... هنا يجدر بنا التبسط قليلا بالتلميح: لم تنجل تماما شخصية الامام زين‌العابدين، و لا أشرقت علينا مزاياه، الا حين اعتنق قضية الأمة و ابتكر خطوط مهماته من أجلها. أن يسوس الأمة مباشرة بطرق دستورية - شرعية يفرض فيها الأحكام و الموجبات، و يسن من خلالها القوانين الملزمة، فتلك - لعمرى - هى الخسارة التى منيت بها الامامة فى اجتماع السقيفة - و ها هو العهد الأموى لتبليغ الخسارة، و تجميد الامامة فى مركز رمزى لا شأن له فى توجيه السياسة و تصدير الأحكام... هنالك ترضية زهيدة يحصل عليها كل امام بمفرده، يخصصه بها بيت المال فى الدولة، يصرفها الامام على شؤونه المعيشية - العائلية الخاصة... [صفحه ۲۳۶] انها منحة كل عهد بمفرده، تضوءل أو تغزر بنسبة ما يرتئى الحاكم، و بمقدار ما تعتبر شعبية المتشيعين فاعلة فى معارضة الحكم و عرقلته فى بسط السيطرة... لم يهدأ الصراع أبدا بين الخطين: خط الامامة المغلوبة على أمرها، و خط المتسللين على كرسى الحكم بطرق ماهرة و قاهرة هى الآن فى يد الأمويين فى الظرف الراهن... انه من الواقع أن نقول: خسر خط الامامة كرسى السياسة، و لكنه لم يخسر مركزه المحترم فى الأمة - حسبه من ذلك عدم تمكن الغير من سلبه حقوق القربى، فالبيت بأجمعه هو بيت النبى الذى محض الأمة بالرسالة، و جمعها بالدين، و شدد عليها الوصية بتسليم الزمام من بعده لأهل بيته الذين هم - وحدهم - أئمة... من هنا أن الاحترام المقدس أصبح فرضا على الجميع، و من جيل الى جيل - بنوع انه من العار على الخصوم أن يتملصوا من احترام يفرضه الواجب، و الحق، و الواقع الصريح. يتبين من كل ذلك أن شخصية الامام - بدورها - هى التى تضمن لمركز الامامة احتراما يتعدى ما هو مفسوح لها بين يدى حاكم، كل ما فى جعبته خطط يتحايل بها لمحو الخصم من الساحة العريضة، فيخلو أمامه الجو، و يحلو له قصب السكر. أن لباقة الامام، و مرونة الامام، أو فلنقل: عبقرية الامام، هى التى تجنب الميزان من الانحطام، و تقوى الكسب فى معركة ليس فيها الا رصيد أعزل، و هو رصيد معنوى، سرعان ما ينتهكه [صفحه ۲۳۷] خصم يهزأ بالقيمة، و يتصلب بالبهتان. و لكن للرصيد المعنوى قيمة لا- يجوز - فى أغلب الأحيان - أن يستهان بها، و هى التى تلقط بها امامنا زين‌العابدين، و جعل لها زبدا يرغى، كأنه تعبير عن جبروت البحر... و الحقيقة أن الزبد انفجاج من جبروت البحر، تتحدث به الأمواج و هى تلبى صيغة الأعصار. تسلح برصيده الامام - و هو المنقوش به نقشا سخيا - و ربطه بالأمة ربط قضية بقضية - و توحدت مهماته و انصبت كلها فى القضية. كأنه الوحيد فى كرسى الحكم، يسوق التوجيه بصراحة التوجيه. و التوجيه وحده هو حاجة الأمة لرفع مستواها الى موازاة الصلاة... و ليست الصلاة أقل من شوق يحضر المشتاق لملاقاة المشتاق اليه... و ليست الأمة الا- المشتاقة الى صفاء و نقاء، يعززان فيها الصدق، و الحق، و الاباء. العلم وحده يزين الطلب، و يملأ الفكر و النفس بمآرب الروح، و يرفض الظلم، و يأبى الخسف فى الميزان - و التقوى هى مخافة الله فى عباده، و هى عاتق الميزان... فأين هو الحاكم لا ينهد؟ اذا أزاح الله من مهجة الانسان؟ تلك هى الصلاة فى نهج الامام، راح يخط حروفها: ساعتين ساعتين فى ركعتين ركعتين كل يوم - ثم ينهض بها الى طواف فى شوارع الناس، يهجىء لهم حروفها فى تركيب المقاطع [صفحه ۲۳۸] - و يلحنها لهم بصوته العذب الموقع على سلالم القرآن... لا ليسمعها - وحده - المريض، أو الكسيح، أو المهيض الجناح... بل ليسمعها - باذنه - الشبعان النائم فى معجن التخمة، و الريان الحاجز النهر فى جراره - و التقى المسكين المصلوب على عتبة قاضى المدينة، و الحاكم الغارق فى خوابى الاثم، و الكافر الهارب من عين ربه، و الأمة لا يوحدها النور و لا تجمعها اليقظات... أية نبرة فى صوته لم تتكحل بالعذوبة، و لم ترقص بالحركات؟ و أى حرف من دعائه لم يثقل بالعلم، و الحق، و الذل، اللطيف المروى بالتقوى و حلاوة الوجدان؟ فكيف لأى سامع أن يهرب من وقع تواشيحه؟ حتى و لو كان حاكما طرد الله من ضميره و مزق القرآن؟.. و هكذا كان أدب الامام، و أسلوب الامام، و قاعدة الفن الرفيع عند الامام: مناجل مناجل، حصدت له - من كل الحقول - حزما حزما من الاجلال، و الحب، و الوقار، مشى بها فى مهابة عز لها النظير، لها فعل السحر على المأخوذين، و هنا فقط - مع الامام - يصح نعت السحر: بالحلال. بمثل هذا السحر جبلت قصيدة الفرزدق فى ساحة الكعبة - رشق بها الخليفة هشام بن عبدالملك، الذى تجاهل اسم الامام: هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله بجده أولياء الله قد ختموا يغضى حياء و يغضى من مهابته فلا يكلم الا حين يبتسم [صفحه ۲۳۹] و بهذا السحر الذى كان فى

بدايـة اشـعاعه أخـذ المهرج فى الكوفة عبيدالله بن زياد... و بدلا أن يحز رأس الامام، و يعجن بدنه بوطء النعال... أنعم عليه بالحياة، و أحاله الى الشام حتى يتبصـر يزيـد بأمره... و بهـذا السـحر أيضا أخـذ الطاغيـة العربيد - يزيد - فاتهم ابن زياد بكفرين: لانه مثل برأس الحسـين - و لانه ذلـل ابن الحسـين... و أمر النعمان بن بشـير بان يشـد قافلـة التكريم، يحمل فيها الامام ابن الحسـين الى يثرب، حيث سيجلو ابن الحسين جوهرة نفسه، و يمسحها بكآبة روحه، و يختصر اسمه ب - زين‌العابدين - [صفحه ۲۴۱]

رسالة الحقوق

و رسالة الحقوق؟ انها - بحد ذاتها - تؤلف صـلاة طويلة جدا، صـلاها الامام زين‌العابدين بمالا يحصـى من أفعال السجود لأجل تعليم الأمـة كيفيـة ضـبط انسانها بما يترتب عليه من حقوق و موجبات. لقـد جعلها بحثا كثير الاقتضاب، حصـره بمقدمـة صـغيرة تبين أهمية العمـل من أجل صـيانة الأمـة بصـيانة انسانها و توجيهه التوجيه الصـحيح - و بتفصـيل قليل التوسع وزعه فى خمسـين عنوانا، يحتل كل واحد منها اشارة خفيفة الى المضـمون. بحكم الطبع، ان كل عنوان بمفرده يحتاج الى شـرح وسـيع، و ذلك ما لم يكن فى طاقة الامام القيـام به، لانه من تخصـة علم النفس و علم الاجتماع، و ذلك يتطلب مجلـدات من البحث و التـدقيق، و لم يكن الوقت موفورا للامام حتى يتفرغ للقيـام به. الا أن مجمل عناوين الرسالـة يشـير - و لو بشـروحها المقتضـبة - الى كون صاحبها عالما اجتماعيا متمكنا، يربط علمه برسالة منزلة لضبط أمة لا يكون لها وزن لها ان لم تكن مؤمنة باله كريم، يغمرها بالمثل، و كل مقومات الجمال. و الحقيقة أن لا قيمة للرسالة العظيمة الا متفاعلة فى أمة [صفحه ۲۴۲] عظيمة... تلك هى حقيقة الارتباط، ارتباط حلول الجوهر فى جهازه الضمنى - و الرسالـة هى للانسان الـذى يعيها و تبنيه. و الا، فكل شـريكين بلا التحام الى انهـدار حزين. أول عنوان فى الرسالة كان: حق الله - اما الشـرح الكبير فكان فى التلميح الصـغير: بان التوحيد من حق الله على الانسان - و فقط التوحيد - انها بديهة من البديهيات، على العقل أن يدركها و يقطع بها مجالات الشـرح الطويل - اما الفلسـفة، فلتنم تحت حبال المجرات حتى تحصـى عدد النجوم. و ثانى عنوان فى الرسالـة كان: حق النفس - اما الشـرح و التحليل فكون النفس خلجـة من خلجات الحياة، و هى روح الله فى المخلوق... و طاعة الخالق حق عليها فى الشـكر الرفيع... انها بديهـة ثانية تختصـر دونها شـروح الفلسـفات. ثم ان النفس هى الانسان الذى هو: - لسان... ما أطيبه يعبر عن النفس بالصدق و نصاعة البيان. - و سمع... لايجوز أن يرهقه غير الحق، و الابتعاد عن سماع الكذب و الأراجيف. - و بصر... يرى الجمال منزها من كل شناعة. - و قدم... تمشى فقط على دروب الخير [صفحه ۲۴۳] لأن الشر يحطمها. - و يد... تمتد الى العمل الشـريف لأـن القبـح يبريهـا. - و بطن... لاـ يجوز أن يمتلىء الا من حلال الـدنيا و الا فهو بيت الـداء. - و رحم... تحضن النسل لحفظ خيط الحياة، تطيبها العفـة و تقرحها الفحشاء. و على الانسان أن يذكى نفسه: بالصـلاة، و الصوم، و الصدقة، و حق الهدى: - الصـلاة... تقربه من الله فى خشوع دائم - - الصوم... جلوة البـدن ممـا يغشـاه من تخمـة تعرقل فاعليـة الصـحة فيه و هو - أيضا - تحضـير الارادة لتحمل الجوع و التحفز لمشاركـة الفقراء تخفيفا من غائلـة العوز عنهم ما أمكن... - الصدقـة... و من أجلها صدقـة السـر - فهى تداخل روحى فاعل فى تقـديم المعونـة، من دون تعريض المحتاج اليها لذل الطلب. - الهدى... و هو ترويض العابد بزيارة الأماكن المقدسـة التى هى تذكير له بأن الله عز [صـفحه ۲۴۴] و جل هو الحال فيها لانه حقيقـة المصدر. أما الانسان فهو المصـنف فى الأمة الى مراتب، اما المرتبة الأولى فهى مرتبة الأئمة. و قد اعتبر الامام أن مركز الامامة مركز ينضوى فيه كل مسؤول فى السياسة، و الحكم، و التعليم، و التوجيه، و الاـدارة... و خصـص كـل واحـد منهم بالطاعـة، و المحبـة، و الاـحترام، حتى يوفى كل واحـد منهم مسؤوليته، بما يلزمها مر الصدق و الوفاء - اما الحاكم - بنوع خاص - اذا أساء و لم يخلص لمركزه الكبير. فأوصـى الامام أن يؤخذ أمره بالروية، و أن لا يجابه بالعصـيان، لأنه المقتدر فى الانتقام، و يكون وقع الضـرر منه على الرعية فادحا و مؤلما... ان الله - لحمكة منه - يتولى أمره و يصـلح - مع الوقت - من شأنه، و لا بـد من نصائـح يقـدمها له الغيورون الفاهمون، تعدل من غلوائه، و تعيده الى حقيقة الرشد. أما الحقوق فهى التى كانت بساط العرض: - على الحاكم أن يكون غيورا على الأمـة و أن تحليه التقوى، و المعرفة، و الحق، و العدل، و صدق الايمان.

- و على المعلم - صائغ الفكر و الحضارة - نزاهة القصد، و لين الطبع، و صحة الوجدان. - و على المؤذن و امام الجماعة، حسن [صفحه ۲۴۵] التوجيه فى تبليغ الاشارة. - و على الأب و الأم تزيين القلب بالمحبة المؤمنة، و الرعاية الحكيمة و التربية الصالحة. لأن الأبناء أجيال الأمة. - و على الأبناء تكريم علة وجودهم و تلك هى فضيلة الوفاء. - و على المولى أن يكون كريما مع من يتولى عليه و يسبغ عليه المعروف. - و على المنعم عليه بالحرية أن يحفظ الولاء لمن حرره من ذل العبودية. - و على الجار أن يحفظ حقوق الجيرة بالمودة، و الستر، و الألفة. - و على الجليس أن يتحلى بآداب السلوك. - و على الصديق أن لا يخون الصداقة و لا يبيعها بالمال، ان فى ذلك ذلا و غدرا... - و على الشريك فى الأعمال أن لا يخون الشراكة، و يبقى عفيفا فى تعاطيه الشريف. - و على صاحب المال أن يعتبر المال انتاج جهد شريف لا ربى فيه و لا تزوير و الا فالتصدق به أولى. [صفحه ۲۴۶] - و على الدائن و المدين صدق الأخذ و صدق القصد بالرد و ما عدا ذلك فالتسامح هو الأولى. و هنالك حقوق عديدة متشابهة، عالجها الامام زيادة فى الحيطة و التبصر: كالمستشير، و المستنصح، و الناصح، و الكبير فى السن، و الصغير فى العمر، و السائل و المسؤول... اما حقوق الملة فهى المحصورة بتأمين السلامة لها، و وفرة الاحسان، حتى تبقى فى اضطراد نموها الخير المؤمن... اما حقوق أهل الذمة، فان ما قبل الله منهم وسع لهم الذمة فى التمتع بالحرية، و الطمأنينة، و الرخاء. تلك هى رسالة الحقوق - قدمها الامام للناس فى سبك بسيط و برىء. و بالكلام الكثير الايجاز. اما الشرح الوسيع فانه كان هناك حيا فى التطبيق الذى يشهد له بانجاز كل ما يقوله و يبشر به تطبيقا على الذات... لقد آمن ايمانا مطلقا بالله، و كان هو - الخاشع الأمثل فى حضرة الله... اما رسالة الحقوق فلقد بدأها بحق الله، و عجنها بتقوى الله. و عززها بكل ما تقوله رسالة الله فى تبيان كل الحقوق و الموجبات، يضبط بها كل شاردة و كل واردة فى شؤون الأمة التى هى مستودع الرسالة، و جهازها الحى. ما شبع الامام من الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، و اغاثة الملهوف، و القيام بالاحسان، و عيادة المرضى، و لملمة اليتيم، و التصدق بالسر، و التفتيش عن المعسرين، و الرفق [صفحه ۲۴۷] بالجوارى و العبيد، و تحريرهم... منذ أن عرف أن غزالة أمه بالرضاعة - هى جارية، هب الى تحريرها و تزويجها لانشاء البيت السعيد... و لقد أحب جارية عنده لطيب عنصرها، فحررها و تزوجها. لقد كانت الأمة - فى نظره - ساحة الرسالة الفيحاء، يذود عنها بالغالى و الرخيص، و يحميها من الفساد، و يدعوها الى التكاتف و التعاضد و صلة الأرحام، و يمنعها من كل شىء يذللها و يبعد عنها المكرمات: فلا و شاية، و لا عمالة، و لا كذب، و لا طمع، و لا مسكر يضيع اللب، و لا فجور يرتكب المحرمات، و لا أية آفة تفرط المجتمع و تقلل من لحمته و من مداه... انه الاجتماعى المؤمن بالحق، و العدل، و الوفاء، و الصبر على المكاره، و هو المؤمن بالعلم محققا كل حضارة الأمة و جامعها فى طرق الصواب. و لقد كان جوهر رسالة الحقوق هذه محصورا حصرا مطلقا بمصلحة الأمة و سلامتها، حتى ان الحكم الذى لم يأنس اليه الامام، و كان يخاف من طغيانه و أثقال جبروته، أحاطه باهتمام خاص، و أولاه حقوق السيادة التى يتمتع بها فى الوقت الراهن، حتى يتحاشى غدره و فتكه، و يجنب الأمة من توسيع البلاء... و تلك كانت مرونته الحكيمة، يخدم الأمة بها، و يجتاز معها الساعات العصيبة المشحونة بالأكدار و المخاطر. لا شك فى انه الامام الكثير اللطف، و الحكمة، و الروية، تلفه العواصف السوداء بحوملات سياسات رديئة الاعصار، يقوم [صفحه ۲۴۸] بها رجال سود الطباع: مثل يزيد، و ابن زياد، و مروان بن الحكم، و ذلك الأشرس من ذئب - الثقفى ابن يوسف الحجاج - و ينجو منهم - مع الأمة - فى آخر المطاف، و على رأسه حبيكة بيضاء، سداها و لحمتها: مهابة - و وقار - و خلود فى الذكر و شعاع قدسى المنار [صفحه ۲۴۹]

الصحيفة السجادية

دلالك أيها الامام - لقد محضتنا بصحيفتك السجادية مضمومة بثلاثة أبعاد: - بعد الهى - روحى ناهد القبب و ممشوق السحاب - و بعد رسالى - سياسى - اجتماعى الحق، و العدل، و الصواب. - و بعد بلاغى - فنى الآداء، عابق بكل شذا يسلسله التراب. بثلاثة أبعاد رزمت الصنيع و جعلته وحدة متلازمة و متماسكة، لا ينفك واحد منها حتى يعترى الصنيع كله ذل أخرس، يبهته و يفقده: الجلال، و

القصد، و الرونق... - ان فى البعد الأول ردهات الجلال الذى هو اطار الصنيع. - و ان فى البعد الثانى روعة القصد الذى هو [صفحه ۲۵۰] جوهر اللب و عماد القضية. - و ان فى البعد الثالث رونق المغزل و بهجة المكوك فى تطريز الأوشحة الملتف بها: رمزان عظيمان، لا تليق الا بهما سدانة الكلمة، و أناقة الفن. لزام علينا - قبل أن ندخل فى أى شرح و تفصيل - أن نلم بهيكلية الصحيفة: انها سفر نفيس، تشبه تماما صاحبها، فحجمها صغير كقامته القصيرة، الا أن ذخرا رفيع الطول يوسعها بالمعانى الجليلة، و هو يرفعها الى ضخامات القبب، كما هو شأن صاحبها بالذات: سكب عليها - من شق غزارته النحيلة - هذا العميق المشع من مهابة تهتاج بها عيناه، و ينفسح بها جبينه. لا يزيد عدد صفحات الصحيفة عن مئة و عشرين صفحة، و هى بكاملها موزعة على أدعية رخيمة، يحصيها كتاب بين يدى بأربعة و خمسين دعاء، يأخذ كل واحد منها عنوانا خاصا، و حجما معينا من الصفحات، يتراوح من صفحة واحدة حتى يبلغ احدى عشرة صفحة فى دعاء عنوانه: «فى يوم عرفة». ان الكتاب - بكامله - يؤلف الصحيفة السجادية، ان كل دعاء - بمفرده - قائم بذاته فى استقلالية مجردة... و سرعان ما يربطك التأمل الخاشع بخيوط ترتبط بها شبكة المعانى، تمتد من أول دعاء حتى آخر دعاء، من دون أن تلمحها كيف تنساب من مسافة الى [صفحه ۲۵۱] مسافة... كأن القصد الأنيق هو الذى يربطها على نول خفى الخيط و باهر المكوك. ان الاكتشاف الذكى هو الدليل الى خطوط الارتباط. و عندئذ فانك ترى أن الأدعية القائمة على ذاتها المنفردة، انما هى تساند جزئى - تضافرى، يتمم الواحد منها منعة الآخر، فى لملمة وحدة الصنيع - تماما كما يقوم كل عمود من أعمدة الهيكل لتتم عليها جميعها وحدة السقف المتين. ليست الأدعية - اذا - مجرد آنية خزفية، ننتجها و نزين بها رفوفا فى بيوتنا... انما هى تسلسل ارتباطى بوحدة موضوعية فى خدمة قضية معينة الأهداف، و جليلة المصير... لماذا لا نقول بتحديد آخر: انها عملية وصل قضية وجودية - رسالية - اجتماعية، بقضية أساسية - رسالية أصيلة، تمكن من تنزيلها فى قرآن، نبى الأمة و رسولها الأمين محمد. ان الصحيفة التى انقطع المام زين‌العابدين لها، و جرد فكره، و قلبه، و بيانه، من أجل تنزيلها فى نطاق الحرف... انما هى مفروعة من اسم لا- أصل له غير القضية... انها قرآن آخر، تفصيل مفروع منه، و مشروح باحدى غزاراته، و مطلى بأبعاد مراميه، و مغتن من مخازن ثرواته - و مدبج بالكلمة الأنيقة المصوغة اطارا فخما لحول قدسية معانيه. انها القضية - على كل حال - و لا قيمة لفكر، أو صيغة، أو مقال، ان لم تكن له [صفحه ۲۵۲] قضية، تطيب له البوح، و النهج، و حجم المنال... ان القضايا فى الحياة تحرس الحياة، و تصونها، و تعين لها العمر، و عمق العين، و أبعاد الخلود... و ان لم يكن الله فى معناه العزيز و المحيط، لب القضايا فى جوهر الحياة، لما جاز لنا اعتبار ذواتنا من أبناء الحياة... لأن و عينا الله فينا، هو مجرد امتصاصنا المثل الجميلة، و الصفات الكريمة المتمثلة فى ايماننا به جامعا لهذه المثل و هذه الصفات - و عندما يتنكر المجتمع لهذه المثل، و لهذه الصفات - فهو الزائغ عن الله، و الكافر بالنعم التى هى مرصودة به، و لن يكون لهذا المجتمع - بالذات - الا الامحاق، و هل تكون الجحيم الموصوفة بحدة نارها من غير هذا الامحاق؟ و بالمعنى الصحيح - ان القضية، قضية الأمة التى من أجلها انبثق الوحى، و انجدلت سور القرآن، هى ذاتها التى اجترحت يوم الغدير، و تقدست فى نهج الامامة، و هى التى شربت دم الحسين و اعتبرته بذلا سخيا... و هى ذاتها القضية، كان لها اندفاق قدسى الهبات على شخصية الامام على بن الحسين، نقلته من كل عتمات السر، و فاضت به على مشارف الاعلان، فاذا به علم من الأعلام، يمتشق الحسام و ليس فى يده أى حسام، الا حكمة طرزها بالحرف، و حماها بالله، و وهجها بالفن. انها قضية أمة تعينت لها - فى الرسالة و فى الامامة - أهداف [صفحه ۲۵۳] الصيانة، حتى تستقيم لها دروب العز... و لكن الذين تسابقوا الى ضفاف الحياض، ما همهم من امتهان الشجرة الا اقتطاف الثمرة... اما الرياض كلها فالى وقود جهنم... ان الامامة - وحدها - تعرف قيمة البستان، و ان حنين الامامة - وحده - هو المستشعر بأنين البنين... و هكذا انطلق الامام مستنجدا بيراعته يبريها و يخط بها حروف البيان... فالأمة المرمية فى الأزقة - انما هى الآن بحاجة الى من يتداركها الى يقظات ترشدها الى سواء السبيل. [صفحه ۲۵۵]

صياغة الصحيفة

اشاره

ليس علينا من حرج اذا نقول: لم يكن صنيع الامام شديد الحاجة الى الأفكار يملأ بها صحيفته و يعرضها للعيان - فالأفكار التى هى مصدر غناها هى ذاتها التى فاضت بها دفتا القرآن، و هى ذاتها رصيد دفق سماوى الحق، توحدت به أمة كانت مفروطة تحت غفلات الزمان... أجل - لا الأفكار، و لا الرسالة، و لا المبادىء المتينة كانت تنقص الامام من أجل تحبير صنيعه، ان ما كان يحتاج اليه الصنيع، هو تخطيط صياغى تنام الفكرة فيه و لا تصحو الا حين تستدعيها غمزة الفن، و لحظة الابداع - و عندئذ فان الفكرة ذاتها الحالة هناك فى سور القرآن، هى فى ولادة ثانية جديدة الحق و جديدة التبيان، و فى صنيع ثان جديد الانبثاق، و جديد اللمعان... ان الأساليب - عند خسوف الشمس - تستعيد بهجة الشروق... و العقل، و الحق، و الصواب، هى القوى الصاعدة على درجات السلالم. و تم التخطيط فى قالبه البديع - تم عندما كان الامام فى محراب الألم، و محراب الحزن - بدأه فى الكوفة بين يدى عبيد الله بن زياد - فلنتذكر ذلك - و زاد عليه ريشة عنقائية الصدر، بين [صفحه ۲۵۶] يدى من كان يمثل فى الشام بعنق مشكوك برأس حسام - فلنهمز قليلا من قناة التاريخ حتى تتجدد أمامنا قباحة الهمجية - و أتمه فى يثرب، بعد خلوة مصت ليالیه، و مصت حزنه الأجرب، ثم مسحته بكآبة الروح، و أسبغت عليه جلالة الفن... و امتثل الصنيع - بعد تنشيط طاقات النفس و الروح - قبة خلف قبة، كل واحدة قائمة بذاتها - هكذا رحنا نظن - و لكن عطشا مزروعا فى كل قبة على حدة، كان يشد الى الثانية حتى يرتوى... و اذا بنا فى واقع المسلسل، يتجمع العطش فيه و يتدور، و يشتد الطلب على سده، و لن يخفف العطش الا اللمح، لمح القصد السارح فى لباقة العرض.

العرض

و كان العرض كثير البراءة، على موسيقى أنيقة، تأخذ كل دعاء منه اليك لأناقة وقعه، قبل أن يستوقفك تفتيش عن مقصده و مراميه - حتى اذا تمكنت منك أسرار المعانى، أدركت أن العمل موزع من مكامنه، ليصيب منه - كل فرد من أفراد الناس - ما يصليه فى علنه أو فى سره - فالعمل كله أدعية، و كل دعاء بحد ذاته، انما هو صلاة يوجهها الانسان الى ربه: اما شكرا على نعمة قد نالها، لا يتمكن أحد من ادامتها عليه غير الخالق الذى أسبغها - و اما التماسا لنعمة يسعد بها فى وجوده، و لا أحد - أيضا - يتمكن من انالته اياها غير موزع الخيرات من خزائنه العميمة. [صفحه ۲۵۷] حدان - لا- أكثر - تركزت عليهما الأدعية: الأول هو الله - عز و جل - مصدر الوجود، و رب الحياة، و بارىء الأكوان... و الحد الثانى هو الأمة أو مجتمع الانسان. و بالتالى: على هذا الانسان الاتصال الدائم بخالقه و ولى نعمته، حتى يحمده و يسبحه، و يشكره على افاضة الخير عليه و هو فى حضنه الكريم. و راح الامام الى استغراق فى تعريف عظمة الخالق، و الى توسع فى وصف قدرته و جليل ارادته، و الى كونه المصدر المطلق لكل عناصر الوجود - فلا أحد قبله، و لا أحد بعده، فهو التوحيد الشامل البدايات، و النهايات، و كل أنواع الصيرورات... اما الانسان فهو المخلوق الأوحد الذى ابتدعه بارادته الحتمية، و ميزه بجهاز جسدى متكامل، أبرز ما فيه عقل يستوعب العلم، و الفهم، و الارادة و نعمة الادراك، حتى ينطق، و يعقل، و يتطور، و ينجب، و يبنى المجتمع الذى هو التعبير الأوفى عن مجد الله فى فحوى الحياة. ما قصر الامام فى الزلفى لله، و لا من تنويع الحمد على آلائه وجدواه - لا ليسمعه الله، و يجزيه على عمق خضوعه و فرط تقواه... بل من أجل أن يجسد العزة الالهية فى عين و ذهن كل فرد من أفراد المجتمع - مهما تكن مرتبة هذا الفرد فى النضيد الاجتماعى. ان الأمة جمعاء بحاجة ماسة للتمرس بمعرفة الله، لا ابتغاء [صفحه ۲۵۸] لكشوفات فلسفية تعيى فلسفات الأرض كلها عن احتوائها فى نصاعة التحديد... بل تعرفا اليه - عز و جل - مستودعا لا- ينضب من المثل العليا، و الصفات الكريمة التى هى - وحدها - تبنى الانسان، و كل مجتمعات الانسات... يكفى أمير الشعراء - شوقى - بيت واحد من الشعر يوجز به خلود الأمم: انما الأم الأخلاق ما بقيت فاذا همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا ليس الله العزيز الجليل بحاجة الى أمم تدعى انها تدركه فى مدارج الفلسفة، و لا تعيشه فى مراجع الوجدان... و لن تجمع الأرض على سطحها أمما لا

تعيش الله الموصوف بانه خير و جمال، و بانه حق، و صدق، و عدل، و عفة، و اناقات خصال... أى اله يتمكن من بناء مجتمع الانسان: بالكذب، و الفحش، و البهتان؟ لا- بل أى شر تعمر به فسحات الجنان؟ و أى جيحم لا- ينعزل اليها الشيطان؟ لا تبنى الأفاعى و لا الأبالسة السود مجتمع الانسان... و لن يبنيه الا- الآمرون بالمعروف و الناهون عن المنكر... ان الله - اذا - هو فى ساحات الحق، و هو الذى يحرس الحياة، و يزرع فيها أمة من أمم الانسان... و الله - ساعتئذ - هو الحى القيوم، لا يغفل شأن الانسان قيمة فى جبروته، و نبرة فى خلوده... و من ضمن الوعد الكبير المقطوع، يكون الانسان حيا فى ذمته العظيمة، و خالدا فى باله الأعظم... يتعهده و يكفكفه [صفحه ۲۵۹] بالضم، و تسديد الخطوات - فاذا صدق فان النجاح ثوابه - و اذا كذب فان العذاب جزاؤه... ان النعيم كفاف الصالحين... و ان الجحيم مآل الخاطئين... اما التوبة فهى رجاء التائهين، تردهم الى صراط، و تخلصهم من عذاب، و هكذا فان الله رحمن رحيم يبنى أمته و هو يعلمها - تلقائيا - كيف تتأصل بالحق، حتى تكون الحياة نعيما لها فى الاستحقاق العزيز. بهذا التوجيه الراجح بالعقل و الايمان كان الامام يتمم عمليات الرص فى أدعيته المتسلسلة، حتى تصليها الأمة كلها و هى ساجدة معه فى محراب التقوى البانية مجتمع الانسان - سيصليها المتعبون، و المرضى، و المحرومون، و المظلومون، و الفقراء، و المضطهدون... و سيصليها - أيضا - الشباعى، و الراغدون، و الآمنون، و كل أفواج المؤمنين... و لن يرتاح حتى يصليها الناهبون، و الكذابون، و المجرمون، و الكفرة المارقون، و زنادیق الفلسفات، و المراؤون، و الخداعون، و الراقصون فوق القبور، و بين خوابى العهر، و الخمر، و الميسر... ان الندامة - وحدها - تردهم الى حق مبين... و لشد ما ينبغى أن يصليها المتربعون فوق كراسى الحكم و هم لصوص فى ثياب الأمراء. يدوسون العدل، و يشربون دم الأمة، و لا يتاثمون!!! يا ويلهم من حكم القضاء، سيعلمهم ان الدنيا حقيرة اذا تعرت من بهجة الضمير، و ان الأمة لا تداس، بل تساس: بالعدل، و العلم، و الحق، و النبل، تساس... لأنها ضمير الله فى جذع الحياة، و سر [صفحه ۲۶۰] المجد فى اعطاف الخلود... أما الله الخلوق الكريم المخرج الانسان من نطفة حقيرة الى نعمة وفيرة، فان له الحمد الذى لا تنتهى حروفه فى التسبيح و التمجيد... لا لانه بحاجة الى التمجيد - فالتمجيد هالة من هالاته المتلألئة من نوره الابهى - بل لأن التمجيد صياغة حرف ينطق به الانسان فى حضرة من علمه ما لم يعلم، و أنزل عليه قرآنا و شاه بالسم محمد... يا للأمة - باسم محمد - تدرك الله، و تدرك النور الذى وسعها الى سماء لن يذوب منها سناء محمد... ألا يكفى الأمة أن تمجد الله - كل يوم - و هى تقول: صلى الله على محمد و على آل محمد. اما البيت، فليكن له جمع الدرارى، حمدا لمن نشر الدرارى لآلى فى الفضاء... و يا للأمة - أيضا - تخشع فى ترددات الذكر، من دون أن تنسى أن آل البيت صاغوا قدسية الرمز فى التمجيد الرفيع المتنورة به ضلوع السماوات. تلك هى مقولة الصحيفة السجادية، و هذا هو كل اطارها. سيكون لنا شوق الى موجز ملموم منها، يوضح قصد صائغها، و يعين مقدار حصته الغنية فى ايلاء الأمة بعضا من اهتماماته بها، على قدر ما أفسح له العصر الهارب الآن من حكم الأمويين، و العالق فى كماشة أخرى هى التى تلوح بها قبضة السفاح. [صفحه ۲۶۱] البعدان: الالهى و الرسالى لا يؤلف البعد الالهى عند الامام الا اشارات و ملامح عن قوة سرمدية شاملة تغلف كل مظاهر الكون، و هى - بدورها - غير محتاجة الى أى تعريف و تحديد، لأن المطلق هو كل اطارها فى مسافات الزمان. اما التمجيد فهو حصتنا نحن الذين ابتدعنا الله من لطفه، و ميزنا عن كل مخلوقاته، بالعقل و النطق و العزم. هذا هو محور الصحيفة السجادية: لا تحدد الله العزيز و الجليل الا قوة مطلقة، لا بد للانسان من الخشوع لها خشوعا مدركا انها مصدره الشامل فى حقيقته الوجودية، و ان كل تحقيق حياتى - اجتماعى، انما هو ارتباط نسبى بهذا الادراك الحى. من الله الى المجتمع - و ليس المجتمع عند الامام الا- الأمة بأكملها - و من المجتمع الى الله، يدور مكوك الأدعية ذهابا و ايابا حتى تتم - فى النتيجة - حياكة السجادة التقية التى هى فنه الخاص به فى تعهد أمة يفوته أن يتداركها - مباشرة - بفروض التصويب و التسديد، ليكون له أن يقدم لها - مداورة، بلباقة و فن صياغة - ما تستعيض به، فى صحيفته، من توجيه تربوى مصيب يرافقها كلما شدت عليها محن زاغت بها عن خطوط الصواب. لقد كان الدعاء الأول، و عنوانه: «التمجيد لله» فاتحة الصحيفة، لأن الله هو «أول بلا أول كان قبله، و الآخر بلا آخر يكون بعده» و لانه «ابتدع الخلق ابتداعا» و اخترعهم على مشيئته [صفحه ۲۶۲] اختراعا - «ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا، و يجزى

الذين أحسنوا بالحسنيى» انسياقا مع الآية ۳۱ من سورة النجم. و جاء الدعاء الثانى و عنوانه: «الصلاة على محمد و آله» ترسيخا لعملية الحمد لله الذى من علينا بمحمد الأمين على الوحى... و هكذا - من دعاءين - تحددت وجهة الأدعية كلها، تمجيدا لله العظيم مبتدع الخلق، و شكرا له من أمة محضها بوليها الأمين محمد. و راح التمجيد فى الدعاء الثالث و عنوانه: «الصلاة على حملة العرش» يظهر عظمة الله بمقاييسنا نحن البشر المتأثرين بما يقع تحت عيوننا من مظاهر العظمة التى يبدو بها أسياد العروش على الأرض. و لكن حملة العرش عنا هم فى تعبير آخر يشهد أن عظمة الله لا حدود لها مع «اسرافيل صاحب الصور، الشاخص الذى ينتظر الاذن و حلول الأمر، فينبه - بانفخة - صرعى رهائن القبور» - «و ميكائيل و جبريل الأمين على الوحى» - «و خزان المطر و زواجر السحاب، و الذين بصوت زجره يسمع زجل الرعود،... و مشيعى الثلج و البرد... و الموكلين بالجبال فلا تزول... و الذين عرفوا مثاقيل المياه، وكيل ما تحويه لواعج الأمطار و عواجلها». هذا هو الله الذى يليق به التمجيد... انه بارىء الأكوان و سيد الأحكام و مطلق العناصر من خزائن الفضاء، و المبددها بين [صفحه ۲۶۳] أبعاد المجردات... لم يحدده الامام من ضلوع الفلسفات، بل بكل مظهر لا يدحض من مظاهره البادية للعيان. و على هذا الطراز راح الامام ينسج التمجيد لله الذى لا يليق الا له التمجيد، و صولا الى الدعاء الثامن و عنوانه: «دعاء فى الاستعاذة» - و الاستعاذة هى بالله من كل الآفات و المعاصى - فلنسمعه يقول: «اللهم انى أعوذ بك من هيجان الحرص، و سورة الغضب، و غلبة الحسد، و ضعف الصبر، و قلة القناعة، و شكاسة الخلق، و الحاح الشهوة، و ملكة الحمية، و متابعة الهوى، و مخالفة الهدى... و ايثار الباطل على الحق، و الاصرار على المآثم... أو أن ننطوى على غش أحد... و نعوذ بك من سوء السريرة». لقد عين الامام الله مصدرا لكل صفة و خلة و مكرمة لا يصلح الا بها مجتمع الانسان - فالله هو الدين كله، و كل الشرائع التى انصاغت منها دساتير الأمم، منذ أن تلملمت على وجه البسيطة جماعات الانسان. و هكذا فان الله - فى الدعاءين: التاسع و العاشر: «فى الاشتياق، و اللجوء الى الله» - هو القوى و نحن الضعفاء، لا قوة و لا استعانة لنا الا به... ليكون الدعاء الثانى عشر: «فى الاعتراف: بمنتهى الجزم بأن عصيان الله يجر علينا الويل و الدمار، و ليس من شىء يردنا اليه الا الندامة و التوبة... اما الدعاء الرابع عشر - و عنوانه: «الظلامات» - ففيه دعوة الحاكم الظالم الى التوبة [صفحه ۲۶۴] و الابتعاد عن الظلم، و الا فان الله مصغ الى طلب المظلومين: «و خذ يا الله، ظالمى و عدوى، عن ظلمى بقوتك، و افلل حده عنى بقدرتك، و اجعل له شغلا فيما يليه، و عجزا عما يناديه»... «اللهم، فكما كرهت الى أن أظلم... فقنى من أن أظلم» - «اللهم لا تفتنى بالقنوط من انصافك، و لا تفتنه بالأمن من انكارك... و عرفه عما قليل ما أوعدت الظالمين». اما الدعاء السادس عشر: «فى الاستقالة» - فهو صلاة ممتازة، قوامها اقرار بضعف الامام و كثرة معاصيه التى لم يستقل منها بعد - و ذلك من أجل أن يحمل كل واحد ما حتى يدرك انه معرض لارتكاب الأخطاء، و عليه أن يندم عليها، و الله غفور رحيم... و هذا فن فى انزال النفس منزلة المخطىء حتى يكون - هو - قدوة فى تعليم المجتمع اصلاح الذات، عن طريق التوبة و طلب الغفران. و فى الدعاء السابع عشر - «دعاء على الشيطان» - حملة عنيفة على الأشرار الذين يمثلون كل المعاصى التى لا يرتكبها الا الشيطان فلنسمعه فى صلاته يقول: «اللهم اشرب قلوبنا انكار عمله، و ألطف لنا فى نقض حبله، اللهم و اهزم جنده و ابطل كيده، و اهدم كهفه، و ارغم أنفه» و لشد ما يكون هذا الدعاء موجها - بنوع خاص - الى كل المتربعين فى دسوت الحكم، يذللون الناس بالظلم و التعدى، حتى بتنعموا هم بخيرات الأمة، من دون أن يوزعوها بالعدل و المساواة - و فى الدعاء العشرين - «فى مكارم [صفحه ۲۶۵] الأخلاق» - باقات حلوة تتغنى بالمكارم و حسن الصفات التى يجب أن تتحلى بها الأمة حتى يستقيم لها العيش الكريم، و هى غمز من قناة الحاكم الظالم حتى يهتم - بدوره - باصلاح سريرته، و الاعتناء بالأمة و رعايتها، حتى لا تهرب منها هذه الصفات... فلنسمعه بشوق يطلب من الله: «استعملنى يا الله بما تسألنى غدا عنه... استفرغ أيامى فيما خلقتنى له... هب لى معالى الأخلاق... و اعصمنى من الفخر... و عبدنى لك... و لا تفسد عبادتى بالعجب... و أجر للناس على يدى بالخير، و لا تمحقة بالمن... و سددنى لا أعارض من غشنى بالنصح... و أن أشكر الحسنة، و أغضى عن السيئة». و فى الدعاء السابع و العشرين - «لأهل الثغور» - استنزال غضب الله على كل من يتنكر للاسلام الذى هو دين الوحى و التوحيد، و ها هو يهددهم بهذا الدعاء الى الله: «أقلم أظافرهم... و شتتهم... و ضيعهم عن

سبلهم... و أرعبهم... و عقهم نساءهم... و يبس أصلاب رجالهم» - حتى تعلو شوكة الدين، و يتهيب المتنكرون لدين الله - حتى و لو كانوا مسلمين و تنكروا لاسلامهم، فان الله يجازى المارقين الكافرين. و فى الدعاءين الثامن و الثلاثين و التاسع و الثلاثين - «فى الاعتذار و فى طلب العفو» - نفحات مكررة من رسالة الحقوق التى هى فروض ثمينة فى علم الاجتماع... يقول: «أعتذر من كل من عمل معى معروفا و لم أشكره عليه... و من أخطأ الى فأرجو يا [صفحه ۲۶۶] الله أن تعفو عنه... و اذا أخطأت أنا ليه فعوض عليه أنت عنى، و اغفر لى، فأنت أهل لأن يعتز بك الصديقون، و لا ييأس منك المجرمون». اما الدعاء السابع و الأربعون - «يوم عرفة» - فهو نهاية المطاف فى الأدعية الجليلة التى تثبت المسلم الصادق فى تمجيد الله، و الاقرار به الها قديرا جامعا كل شىء تحت ارادته الشاملة... أن عرفة جبال تزار فى الحج... و فى عرفة يدعو الامام دعاء مستفيضا من أجل اصلاح الأمة، و اصلاح السياسيين فى كل حين و فى كل جيل، حتى يكونوا خير من يقوم فى تثبيت الأمة على كل الركائز الاجتماعية الصحيحة التى هى المدى الصادق فى تأليف المجتمع الممتاز المتحلى بالصفات الكريمة. [صفحه ۲۶۷]

البعد البيانى

هناك صنيعان قام بهما الامام زين‌العابدين، وفاهما حقهما من الاستفاضة و تمام التبليغ - اما الصنيع الأول فكان رسالة الحقوق: انها تتحلى بالبساطة و الموضوعية، و تكتفى بهما على فصاحة بريئة لا تلتجىء الى زخرف و أناقة بيانية، فهى موجهة الى كل فرد من أفراد الناس. ان تفهم كل فرد ما عليه من حقوق و موجبات هو الغاية و القصد، و ليس من حاجة الى استعمال علم البديع، و التلاعب بالصور البيانية و المجازية، و أى شكل من أشكال الخيال، لاتمام هذا الغرض و ايصاله الى المفاهيم، و الا فان الزخرف الكلامى يغرق القصد فى متاهة لا ينجو منها الا نخبة قليلة لا تمثل السواد الأعظم من الأمة المؤلفة من العمال، و الفلاحين، و الصناع، و الكادحين... من هنا نقول: ان رسالة الحقوق - بانشائها العادى البسيط، و بيانها الموضوعى السهل الآداء - جاءت بأصدق ما يمكن أن يؤديه عالم اجتماعى فى تنوير أمة ينقصها صدق السياسة و وضوحها المبدئى. اما الصنيع الثانى - و كان «الصحيفة السجادية» - فهو طراز آخر صنفه وضع الأمة المأخوذة بسياسة ضاغطة لا تألو جهدا حتى [صفحه ۲۶۸] تبسط سيادتها على جميع بقاع الأرض التى تحيا فوقها طبقات الأمة، و تجنى منها أود عيشها، و أنماط سعادتها... ستحاول تلك السياسة تحقيق مبتغاها، و لو بالتجنى على حريات الغير: بالقهر، و الارهاب، و التهديد، و التنكيل، و كل أنواع الاضطهاد... اما الامامة المرتبطة بعهود رسالية - مبدئية - نبوية - روحية، فانها - أبدا - فى مجال الدفاع عن قضية وجودية - حياتية، لا تنفصل عن الأمة، بل هى الأمة كلها بجوهرها المطلق، و وجودها الحى. بهذا المبدأ المتين الترسيخ فى ايمان الامام زين‌العابدين، كان لجوؤه الى ابتكار صنيع يؤديه للقضية، يكون بمثابة توجيه مركز، تستفيد منه الأمة فى اصلاح أمورها، و ارشادها الى طرق الصواب، و ارشاد القيمين على مغالق الحكم حتى لا يتمادوا فى الظلم و ارهاق الرعية... انه عمل تعويضى فى الوقت الراهن، و انه توجيه روحى ستحتاجه الأمة فى كل غد من أجيالها الصاعدة، تتعتم فيه مسالكها فى طريقها الممشية بأنواع الزيغ. من هنا أن العمل كان موجها توجيها ملون الأبعاد، أملته ظروف سياسية لا تسمح للامام بتوسيع صدره فى الساحات... فعمد الى السجود و الصلاة، يناجى بهما رب الأرض و رب السموات... كما و ان هذا اللون الرفيع من المناجاة، لا يتمكن من رفض سماعه لا الكفرة و لا الأتقياء، لا المظلومون و لا الظالمون... و لا حتى الباغون المتعدون على حياض العباد: [صفحه ۲۶۹] فالتقى يسمعه بارتياح النفس، و الكافر يسمعه بتبكيت الضمير، و بخوف من سوء المصير... و المظلومون يأخذونه بصبر مؤمن و راحة فى البال... اما الظالمون الباغون فانهم المتأملون بالعاقبة الوخيمة، و المأخوذون بالزجر المقدس، يترصدهم عند فوهة القبر و فى لحظات العبور. و كانت الصلوات محشوة بالتوريات الخفية، يزينها الفكر الأنيق، و المعنى المنزل فى تجاويف الكلمات، و كان الفن مزروعا فى سياسة الأسلوب، يصوغ الصور و يرتلها على موسيقى تنبض بها ضلوع الحروف، فى فصاحة و بلاغة تخففت بهما جلالات الخيال، و أناقات التعبير، كأن الله - جل جلاله - هو المصغى اليها، و هو المهيمن فيها كما كان مهيمنا فى كل آية من سور القرآن... [

صفحه ۲۷۱]

الخاتمة

فيها أيها الامام سبحان الله فيك - كيف لونك بالحرف - و كيف اندمج فى مآتيك و كيف أشرقت به - و كيف أشرق فيك! و كيف وسعك الفن! و كيف وسعك الخيال! فكنت أسلوبا رفيعا - و كنت سجودا ذكيا و كنت صلاة مقدسة الحروف! و كنت قضية مدموجة بقضية! و كن قرآنا مدغوما بقرآن! و كنت وجها كريما مشعا! [صفحه ۲۷۲] و كنت مدرسة جديدة لنشر الحق بالحرف الجديد تكشف الباغى بانه فى ضلال أكيد - و ان الله هو مجمع الصفات الكريمة - و ان الأمة هى المستودع الكريم - تتخبأ لها منح الحياة - و لا تثمر الا منها و لها كل الهبات - و كل قدسية الله النازلة فى آيات - و لا تقدم الا لها مجامع الصلوات - و لا تطيب الا من أجلها السجدات - و لا ترتفع الا لها تحت قبة الله قباب السموات

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج ۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...